محاضرة فقه السيرة للدكتور // التيجاني

أهمية السيرة النبوية فى فهم الإسلام

ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية وفقهها، مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية، ولا سرد ما طرف أو جمل من القصص والأحداث ولذا فلا ينبغى أن نعتبر دراسة فقه السيرة النبوية من جملة الدراسة التاريخية، شأنها كشأن الإطلاع على سيرة خليفة من الخلفاء أو عهد من العهود التاريخية الغابرة.

وإنما الغرض منها، أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية فى مجموعها متجسدة فى حياته صلى الله عليه وسلم، بعد أن فهمها مبادئ وقواعد وأحكام مجردة في الذهن.

أي أن دراسة السيرة النبوية، ليست سوى عمل تطبيقي يراد منه تجسيد الحقيقة الإسلامية كاملة ، في مثلها الأعلى محمد صلى الله عليه وسلم.

وإذا أردنا أن نجزئ هذا الغرض ونصنف أجزاءه، فإن من الممكن حصرها في الأهداف التفصيلية التالية:

1- فهم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم (النبوية) من خلال حياته وظروفه التى عاش فيها، للتأكد من أن محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد عبقرى سمت به عبقريته بين قومه ولكنه قبل ذلك رسول أيده الله بوحى من عنده وتوفيق من لدنه.

2- أن يجد الإنسان بين يديه صورة للمثل الأعلى فى كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة ، كى يجعل منها دستورا يتمسك به ويسير عليه،ولا ريب أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى فى ناحية من نواحى الحياة فإنه واجد كل ذلك فى حياةالرسول صلى الله عليه وسلم أعظم ما يكون من الوضوح والكمال.

ولذا جعله الله قدوة للإنسانية كلها إذ قال : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) الأحزاب 21.

3- أن يجد الإنسان فى دراسة سيرته صلى الله عليه وسلم ما يعينه على فهم كتاب الله تعالى وتذوق روحه ومقاصده ، إذ أن كثيرا من آيات القرآن إنما يجليها وتفسرها الأحداث التى مرت برسول الله صلى الله عليه وسلم وموقفه منها.

4- أن تتجمع لدى المسلم من خلال دراسة سيرته صلى الله عليه وسلم أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية الصحيحة ، سواء ما كان منها متعلقا بالعقيدة والأحكام والأخلاق، إذ لا ريب أن حياته صلى الله عليه وسلم إنما هي صورة مجسدة نيرة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه.

5- أن يكون لدى المعلم والداعية الإسلامي نموذج حي عن طرائق التربية والتعليم، فلقد كان محمد صلى الله عليه وسلم مربيا فاضلا ومعلما ناصحا لم يأل جهدا فى تلمس أجدى الطرق الصالحة الى كل من التربية والتعليم خلال مختلف مراحل دعوته.

وإن من أهم ما يجعل سيرته صلى الله عليه وسلم وافية بتحقيق هذه الأهداف كلها أن حياته عليه الصلاة والسلام شاملة لكل النواحى الإنسانية والإجتماعية التى توجد فى الإنسان من حيث إنه فرد مستقل بذاته أو من حيث أنه عضو فعال فى المجتمع.

فحياته عليه الصلاة والسلام تقدم إلينا نماذج سامية للشاب المستقيم فى سلوكه، الأمين مع قومه وأصحابه، كما تقدم النموذج الرائع للإنسان الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، الباذل منتهى الطاقة في سبيل إبلاغ رسالته، ولرئيس الدولة الذى يسوس الأمور بحذق وحكمة بالغة، وللزوج المثالى فى حسن معاملته والأب فى حنو عاطفته مع تفريق دقيق بين الحقوق والواجبات لكل من

الزوجة والأولاد، وللقائد الحربي الماهر والسياسي الصادق المحنك، وللمسلم الجامع - فى دقة وعدل - بين واجب التعبد والتبتل لربه، والمعاشرة الفكهة اللطيفة مع أهله وأصحابه.

لا جرم إذاً، أن دراسة السيرة النبوية ليست إلا إبرازا لهذه الجوانب الإنسانية كلها مجسدة في أرفع نموذج وأتم صورة.

سر اختيار الجزيرة العربية مهداً لنشأة الإسلام

ولابدّ قبل أن ندخل فى الحديث عن سيرته صلى الله عليه وسلم، وعن الجزيرة العربية التى نشأ فيها واختاره الله منها - من أن نستجلى الحكمة الإلهية التى إقتضت أن تكون بعثته عليه الصلاة والسلام فى هذه البقعة من العالم دون غيرها، وأن تكون نشأة الدعوة الإسلامية على يد العرب قبل غيرهم.

ولبيان هذا ينبغى أولا أن نعلم خصائص العرب وطباعهم قبل الإسلام ، وأن نتصور البقعة الجغرافية التى كانوا يعيشون فيها وموقعها مما حولها وأن نتصور فى مقابل ذلك ما كانت عليه الأمم الأخرى إذ ذاك كالفرس والروم واليونان والهنود، من العادات والطباع والخصائص الحضارية.

ولنبدأ أولا بعرض موجز لما كانت عليه الأمم التى تعيش من حول الجزيرة العربية قبيل الإسلام. كان يتصدر العالم إذ ذاك دولتان إثنتان، تتقاسمان العالم المتمدن هما: فارس والروم، ويأتى من ورائهما اليونان والهند. أما فارس، فقد كانت حقلا لوساوس دينية فلسفية متصارعة مختلفة. كان فيها الزارادشتية التى إعتنقها ذوو النفوذ والسلطة الحاكمون، وكان من فلسفتها تفضيل زواج الرجل بأمه أو إبنته أو أخته، حتى أن يزدجرد الثانى الذى حكم فى أواسط القرن الخامس الميلادى تزوج بابنته. هذا الى جانب إنحرافات خلقية مشينة مختلفة لا مجال لسردها هنا.

وكان فيها (المزدكية) التى قامت كما يقول الإمام الشهرستانى على فلسفة أخرى هى حل النساء وإباحة الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، وقد حظيت هذه الدعوة باستجابة عظيمة لدى أصحاب الرعونات والأهواء وصادفت لديهم قبولا عظيما.

أما الرومان، فقد كانت تسيطر عليهم الروح الاستعمارية، وكانت منهمكة فى خلاف ديني بينها من جهة وبين نصارى الشام ومصر من جهة أخرى، وكانت تعتمد على قوتها العسكرية وطموحها الاستعمارى فى مغامرة عجيبة من أجل تطوير المسيحية والتلاعب بها حسبما توحي بها مطامعها وأهواءها المستشرية. ولم تكن هذه الدولة فى الوقت نفسه أقل انحلالا من دولة فارس، فقد كانت تسودها حياة التبذل والإنحطاط والظلم الإقتصادى من جراء كثرة الأتاوات، ومضاعفة الضرائب.

أما اليونان فقد كانت غارقة في هلوسات من خرافاتها وأساطيرها الكلامية التي منيت بها دون أن ترقى منها إلى ثمرة أو نتيجة مفيدة.

وأما الهند فقد كانت كما قال عنها الأستاذ أبو الحسن الندوى: أنه قد اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخها أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي، فقد ساهمت الهند مع جاراتها وشقيقاتها فى التدهور الأخلاقى والإجتماعى.

هذا، وينبغى أن نعلم أن القدر المشترك الذى أوقع هذه الأمم المختلفة فيما وقعت فيه من انحلال واضطراب وشقاء، إنما هو الحضارة والمدنية اللتين تقومان على أساس القيم المادية وحدها دون أن يكون ثمّة مثل أعلى يقود هذه الحضارة والمدنية فى سبيلها المستقيم الصحيح. ذلك أن الحضارة بمختلف مقوماتها ومظاهرها ليست سوى وسيلة وسبب... فإن عدم أهلها التفكير الصائب

والمثل العليا الصحيحة إستحالت الحضارة فى أيديهم إلى وسيلة للنزول بها الى درك الشقاء والإضطراب، أما إن أوتى أهلها مقياسا من العقل الرشيد الذى قلما يأتى إلا بواسطة الدين والوحى الإلهى، فإن القيم الحضارية والمدنية كلها تصبح وسائل جميلة سهلة الى السعادة التامة فى مختلف أنواعها ومظاهرها.

* * *

أما الجزيرة العربية فقد كانت هادئة، بعيدة بل منعزلة عن مظاهر هذه الإضطرابات كلها ، فلم يكن لدى أهلها من الترف والمدنية الفارسية ما يجعلهم يتفننون فى خلق وسائل الانحلال وفلسفة مظاهر الإباحية والإنحطاط الخلقى ووضعها فى قوالب من الدين، ولم تكن لديهم من الطغيان العسكرى الرومانى ما يبسطون به أيديهم بالتسلط على أى رقعة من حولهم، ولم يؤتوا من ترف الفلسفة والجدل اليونانى ما يصبحون به فريسة للأساطير والخرافات.

كانت طبائعهم أشبه ما تكون بالمادة (الخام) التى لم تنصهر بعد فى أى بوتقة محوّلة، فكانت تترآى فيها الفطرة الإنسانية السليمة، والنزعة القوية الى الإتجاهات الإنسانية الحميدة، كالوفاء والنجدة والكرم والإباء والعفة. إلاّ أنه كانت تعوزهم المعرفة التى تكشف لهم الطريق الى كل ذلك. إذ كانوا يعيشون فى ظلمة من الجهالة البسيطة والحالة الفطرية الأولى، فكان يغلب عليهم - بسبب ذلك - أن يضلوا الطريق الى تلك القيم الإنسانية فيقتلوا الأولاد بدافع الشرف والعفة ، ويتلفوا الأموال الضرورية بدافع الكرم، ويثيروا فيما بينهم الحروب والمعارك بدافع الإباء والنجدة.

وهذه الحالة هى التى عبر عنها الله عز وجل بالضلال حينما وصفها بقوله : (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) البقرة (198)، وهى صفة إذا ما نسبت الى حال الأمم الأخرى إذ ذاك - تدل على الإعتذار لهم أكثر من أن تدل على تسفيههم أو تعييرهم بها.

ذلك أن الأمم الأخرى كانت تستهدى لإنحرافاتها العظيمة بمشاعل الحضارة والثقافة والمدنية. فكانت تتقلب فى حمأة الفساد عن تبصر وتخطيط وفكر، ثم إن الجزيرة العربية تقع بالنسبة لرقعتها الجغرافية فى نقطة الوسط بين هذه الأمم التى تموج من حولها.

و الناظر إليها اليوم يجد - كما يقول الأستاذ محمد المبارك - كيف أنها تقف فى الوسط التام بين حضارتين جانحتين : إحداهما حضارة الغرب المادية التى قدمت عن الإنسان صورة بتراء لا تقع حتى على جانب جزئى من الحقيقة، وأخراهما الحضارة الروحية الخيالية فى أقصى الشرق كتلك التى كانت تعيش فى الهند والصين وما حولهما.

فإذا تصورنا حالة العرب فى الجزيرة العربية قبل الإسلام وحالة الأمم المختلفة الأخرى المحيطة بهم، سهل علينا أن سنتجلى الحكمة الإلهية التى إقتضت أن تتشرف الجزيرة العربية دون غيرها بمولده وبعثته صلى الله عليه وسلم، وأن يكون العرب هم الطليعة الأولى التى تحمل الى العالم مشعل الدعوة الى الدين الإسلامى الذى تعبد الله به الجنس البشرى كله من أقصى العالم الى أقصاه.

وهى ليست -كما يظن البعض- أن أصحاب التدين الباطل والحضارات الزائفة يصعب فيهم العلاج والتوجيه لإفتخارهم بما هم عليه من فساد ولرؤيتهم إياه شيئاً صالحا، أما الذين لا يزالون يعيشون فى فترة البحث والتنقيب، لا ينكرون جهلهم ولا يدّعون ما لم يؤتوه من مدنية وعلم وحضارة، فهم أطوع للعلاج والتوجيه - نقول ليست هذه هى الحكمة، لأن مثل هذا التحليل يصدق بالنسبة لمن كانت قدرته محدودة وطاقته مخلوقة فهو يفرق بين ما هو سهل وصعب عليه، فيفضل الأول ويتهرب من الثانى طمعا فى الراحة وكراهية للنصب. ولو تعلقت إرادة الله تعالى بأن يجعل مشرق الدعوة الإسلامية من جهة ما فى أرض فارس أو الروم أو الهند، لهيأ لنجاح الدعوة فيها من الوسائل ما هيأ لها فى الجزيرة العربية، وكيف يعز عليه ذلك وهو خالق كل شىء ومبدع كل وسيلة وسبب.

ولكن الحكمة فى هذا الإختيار من نوع الحكمة التى إقتضت أن يكون الرسول أميّا لا يتلوا من كتاب ولا يخطه بيمينه كما قال الله تعالى حتى لا يرتاب الناس فى نبوته عليه الصلاة والسلام وحتى لا تتكاثر لديهم الأسباب للشك فى صدق دعوته . (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) عنكبوت (48-29)

إذ من تتمة هذه الحكمة الإلهية أن تكون البيئة التى بعث فيها عليه الصلاة والسلام أيضا بيئة أمية بالنسبة للأمم الأخرى التى من حولهم أى لم يتطرق إليها شىء من الحضارات المجاورة لها، ولم تتعقد مناهجها الفكرية بشىء من الفلسفات التائهة حولها.

ذلك أنه كما يخشى من دخول الريبة فى صدور الناس إذا ما رأوا النبى (ص) متعلما مطّلعا على الكتب القديمة وتاريخ الأمم البائدة وحضارات الدول المجاورة - كذلك يخشى من دخول هذه الريبة فى الصدور إذا ما ظهرت الدعوة الإسلامية بين أمّة لها شأن فى الحضارة والمدنية والفلسفة وتاريخ ذلك، كدولة الفرس أو اليونان أو الرومان، إذ ربّ مرتاب مبطل يزعم أنها سلسلة التجارب الحضارية والأفكار الفلسفية أبدعت أخيرا هذه الحضارة الفذة والتشريع المتكامل.

ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحكمة بصريح العبارات حينما قال : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبله لفي ضلال مبين).

فلقد اقتضت إرادة الله تعالى أن يكون رسوله أميّا، وأن يكون القوم الذين ظهر فيهم هذا الرسول أميين أيضا فى غالبيتهم العظمى، حتى تكون معجزة النبوة والشريعة الإسلامية واضحة فى الأذهان لا لبس بينها وبين الدعوات البشرية المختلفة، وهذ ا ينطوى - كما هو واضح - على رحمة عظيمة بالعباد.

وهنالك حكم أخرى لا تخفى على الباحث نجملها فيما يلى :

1- من المعلوم أن الله عز وجل قد جعل البيت الحرام مثابة للناس وامنا، وجعله أول بيت وضع للناس للعبادة وإقامة الشعائر الدينية، وحقق فى ذلك الوادى دعوة أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ومن لوازم هذا كله ومتمماته أن تكون هذه البقعة المباركة نفسها مهدا للدعوة الإسلامية التى هى ملة أبينا إبراهيم وأن تكون بعثة خاتم النبيين ومولده فيها، كيف لا وهو نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

2- البقعة الجغرافية للجزيرة العربية ترشحها للقيام بعبء مثل هذه الدعوة، بسبب أنها تقع - كما قلنا - فى نقطة الوسط بين الأمم المختلفة التى من حولها.

وهذا مما يجعل إشاعات الدعوة الإسلامية تنتشر بين جميع شعوب الدول المحيطة بها فى سهولة ويسر، وإذا أعدت النظر الى سير الدعوة الإسلامية فى صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين وجدت مصداق ذلك جليا واضحا.

3- إقتضت حكمة الله تعالى أن تكون اللغة العربية هي لغة الدعوة الإسلامية وأن تكون وسيلة المباشرة الأولى لترجمة كلام الله عز وجل وإبلاغه إلينا. ولعلنا لو أمعنا النظر في خصائص اللغات وقارنا بينها، لوجدنا أن اللغة العربية تمتاز بكثير من الخصائص التى يعز وجودها في اللغات الأخرى، فأجدر بها أن تكون لغة المسلمين الأولى في مختلف ربوعهم وبلادهم.

الجاهلية وما كان فيها من بقايا الحنيفية

وهذه أيضا مقدمة هامة لابد من دراستها قبل الخوض فى أبحاث السيرة وما فيها من فقه وعظات، إذ هى تنطوى على حقيقة لا يزال خصوم هذا الدين يطمسون عليها ويزيفونها بأشكال من الوهم والأباطيل.

وخلاصة هذه الحقيقة أن الإسلام ليس إلا إمتداداً للحنيفية السمحة التى بعث الله بها أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وقد صرح بذلك كتاب الله عز وجل فى آيات كثيرة منها قوله (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو إجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) الحج 78 وقوله تعالى: (قل صدق الله فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)

وأنت خبير أن العرب هم أولاد إسماعيل ابن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فكان أن توارثوا ملّة أبيهم ومنهاجه الذى بعث به من توحيد الله وعبادته والوقوف عند حدوده وتقديس حرماته.

وفى مقدمة ذلك تعظيم البيت الحرام وتقديسه واحترام شعائره والذود عنه والقيام بخدمته وسدانته فلما إمتدت بهم القرون وطال عليهم الأمد، أخذوا يخلطون الحق الذى توارثوه بكثير من الباطل الذى تسلل إليهم، شأن سائر الأمم والشعوب عندما يغشاها الجهل ويبعد بها العهد ويندّس بين صفوفها المشعوذون والمبطلون.

فدخل فيهم الشرك واعتادوا عبادة الأصنام وتسللت إليهم التقاليد الباطلة والأخلاق الفاحشة، فابتعدوا بذلك عن ضياء التوحيد وعن منهج الحنيفية وعمت بينهم الجاهلية التى رانت عليهم أمدا من الدهر، ثم إنقشعت عنهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان أول من أدخل فيهم الشرك وحملهم على عبادة الأصنام عمرو بن لحىّ بن قمعة بن خزاعة : روى ابن اسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن جون الخزاعى : يا أكثم، رأيت عمرو بن لحىّ بن قمعة بن خندف يجرّ قصبه فى النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه، فقال أكثم : عسى أن يضرنى شبهه يارسول الله؟ قال: لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غيّر دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيّب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى).

وروى ابن هشام كيفية إدخال عمرو بن لحىّ هذا، عبادة الأصنام فى العرب فقال : خرج عمروبن لحىّ من مكة الى الشام فى بعض أموره، فلما قدم (مآب) من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عملاق، ويقال عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح - رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم أفلا تعطوننى منها صنما فأسير به الى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنما يقال له (هبل) فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وهكذا إنتشرت عبادة الأصنام فى الجزيرة العربية وشاع فى أهلها الشرك، فانسلخوا من عقيدة التوحيد التى كانوا عليها واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، وانتهوا الى مثل ما إنتهت إليه الأمم الأخرى من الضلالات والقبائح فى المعتقدات والأفعال.

وكان من أهم ما دفعهم الى ذلك كله الجهل والأمية والتأثر بمن كان حولهم من أشتات القبائل والأمم غير أنه بقيت فيهم بقية من الناس - وإن كانت تقل مع الزمن - ظلت متمسكة بعقيدة التوحيد، سائرة على نهج الحنيفية: تصدق بالبعث والنشور وتوقن بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصى، وتكره هذا الذى استحدثه العرب من عبادة الأوثان وضلالات الرأى والفكر، ولقد إشتهر من هذه البقية كثيرون: كقس بن ساعدة الأيادى، ورئاب الشنّى، وبحيرا الراهب.

كما أنه بقيت فى عاداتهم بقايا من عهد إبراهيم ومبادىء الدين الحنيف وشعائره - وإن كانت تتضاءل وتضعف مع الزمن - فكانت جاهليتهم تظل منصبغة، بقدر ما بآثار من شعائر الحنيفية ومبادئها، وإن كانت هذه الشعائر والمبادىء لا تكاد تظهر فى حياتهم إلاّ مشوهة فاسدة، وذلك كتعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة وكالوقوف بعرفة وهدى البدن، فأصل ذلك كله مشروع ومتوارث لديهم من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولكنهم كانوا يطبقونه على غير وجهه ويقحمون فيه الكثير مما ليس منه، وكإهلالهم بالحج والعمرة، فقد كانت كنانة وقريش يقولون إذا أهلوا : (لبيك الهم لبيك، لبيك لا شريك، إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك) فيوحدونه - كما قال ابن هشام - بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده.

و الخلاصة أن نشأة التاريخ العربى إنما تمت فى كنف الحنيفية السمحة التى بعث بها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام فكانت تغمر حياتهم عقيدة التوحيد ونور الهداية والإيمان، ثم أخذ العرب يبتعدون عن ذلك الحق رويدا رويدا، بعامل إمتداد الزمن وتطاول القرون وبعد العهد وأخذت حياتهم تنغمر بدلا من ذلك بظلمات الشرك وضلالات الفكر وعماهة الجهل، مع إستمرار بقايا من معالم الحق القديم ومبادئه تخب فى سير بطىء مع تاريخهم، تذوى وتضعف مع الدهر ويقل أنصارها ما بين سنة وأخرى. فلما استنارت شعلة الدين الحنيف من جديد، ببعثة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، أقبل الوحى الإلهى الى كل ما قد تكثف من ضلالات وظلمات خلال تلك الحقبة الطويلة من الزمن فمحاه وأنار مكانه بقبس الإيمان والتوحيد ومبادىء العدالة والحق، وأقبل الى تلك البقايا التى إمتدت بها الحياة الى مشرق النور الجديد، مما كان قد بعث به إبراهيم عليه السلام وأقرته الشرائع الإلهية، فأقرها وأكدها وجدد الدعوة اليها.

ولا ريب أن من نافلة القول وفضوله أن نؤكد بأن هذا الذى نقرره شىء معروف بالبداهة لمن إطلع على التاريخ، وأنه شىء ثابت بالبداهة لمن درس شيئا من الإسلام، غير أننا نضطر فى هذا العصر الى أن نضيع كثيرا من الوقت فى تأكيد البديهيات وتوضيح الواضحات. وذلك بعد أن رأينا بأعيينا كيف يخضع بعض الناس إعتقاداتهم لمجرد ما قد يكون فى نفوسهم من الرغبة والإرادة.

أجل لفقد عاشت هذه النوعية من الناس، ولم يعد يهمها أنها إنما تصفد عقلها بأقسى أغلال العبودية والإسترقاق الفكرى !. وما أعظم الفرق بين أن تكون إرادتك من وراء عقيدتك، وبين أن تكون عقيدتك وراء إرادتك. ما أعظم الفرق بينهما علواً وإسفافاً، وعزة وانحطاطا!

لقد وجد ناس يقولون - بالرغم من بداهة ما قلناه ووضوح براهينه - إن العصر الجاهلى أخذ يستيقظ قبيل البعثة على السبيل الأمثل الذى يجب إتباعه، وأحذت الأفكار العربية تثور على مظاهر الشرك وعبادة الأصنام وما يحف بها ويتبعها من خرافات جاهلية، ولقد تمثلت هذه اليقظة والثورة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته الجديدة.

ومعنى هذه الدعوة -كما لا يخفى عليك- أن التاريخ الجاهلى كان يزداد تفتحا على حقائق التوحيد ونور الهداية مع إمتداد الزمن وتطاول الدهر، أى أنهم كلما إبتعدوا عن عهد إبراهيم وقامت بينهم وبينه قرون أخرى، إزدادوا قربا الى مبادىء دعوته حتى بلغ هذا القرب مداه الأخير إبّان بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم !. فهل هكذا يقرر التاريخ، أم أنه يقرر عكس ذلك تماما فى أبسط ما تنطق به (ألف باؤه) الواضحة المفهومة؟

كل باحث ومتأمل حر، يعلم أن العهد الذي بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم إنما كان أبعد العهود الجاهلية عن هديه عليه الصلاة والسلام بالنسبة لسائر العهود الأخرى ، والأطلال التي كانت لدى العرب عند بعثته عليه الصلاة والسلام من معالم الحنيفية السمحة ومبادئها والتي كانت تتمثل في لمع خاطفة من كراهية الأصنام والترفع عن عبادتها وفى النزوع إلى بعض الفضائل والقيم التي أقرها الإسلام - هذه الأطلال لا تبلغ معشار ما كان بارزاً واضحاً منها لديهم قبل بضعة قرون. وقد كان المتوقع حسب تصور هؤلاء إذاً لمعنى النبوة والبعثة، أن تكون بعثته عليه الصلاة والسلام قبل الزمن الذي بعث فيه بعدة قرون وأجيال !!

وأما أناس آخرون، فقد طاب لهم أن يقرروا بأن محمد صلى الله عليه وسلم لمّا لم يستطع القضاء على معظم ما كان معروفا لدى العرب من الأعراف والتقاليد والطقوس والاعتقادات الغيبية، عمد فأسبغ على كل ذلك ثوب الديانة وأخرجه مخرج التكليفات الإلهية، وبتعبير آخر : إنما أتى محمد عليه الصلاة والسلام ليضيف إلى جملة العقائد الغيبية عند العرب رقابة عليا قوامها شخصية إله قادر على ما يشاء، فعال لما يريد، فقد استمر العرب بعد الإسلام يؤمنون بالسحر وبالجن وبسائر العقائد المماثلة، كما أنهم ظلوا على ما كانوا عليه من الطواف بالكعبة وتقديسها وأداء طقوس وشعائر معينة نحوها.

وإنما ينطلق هؤلاء في دعواهم هذه من فرضيتين اثنتين لا يريدون أن يتصوروا خطأهما بحال، الفرضية الأولى: أن محمد صلى الله عليه وسلم ليس نبيا، والثانية: أن ما كان لدى العرب من بقايا إبراهيم التي تحدثنا عنها، إنما هو من مخترعاتهم وتقاليدهم التى إبتدعوها مع الزمن من عند أنفسهم، فليس إحترام الكعبة وتقديسها أثراً من آثار دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام كما أمره ربه بذلك، وإنما هو شيء نسجته البيئة العربية فكان تقليداً من جملة التقاليد العربية المختلفة.

وفى سبيل المحافظة على هاتين الفرضيتين أن لا يصيبهما خدش أو وهن، يغمض أربابهما العين عن جميع الأدلة والوقائع التاريخية الجلية الكبرى التى تقف فى طريقهما أو التى تردّهما وتكشف عن زيفهما وبطلانهما.

غير أن المعلوم أن البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يوصل الباحث إليها ما دام أنه لا يخط السبيل نحوها إلا ضمن ما تسمح به الفرضية التى وضعها فى ذهنه سلفا وقبل أى بحث. إن من المعلوم أن مثل هذا البحث إنما هو صورة من أوضح صور العبث والمضحك.

ولذلك فإننا لا نجد مناصا من أن نأخذ عبين الإعتبار كل دليل عقلى أو واقعة تاريخية لدى محاولة الوصول الى أى حقيقة، ما دمنا لا نقصد إلا الحقيقة الذاتية نفسها، وما دمنا لا نريد أن نكذب على أنفسنا وعلى الناس فنصطنع البحث الحر إبتغاء حمل الآخرين على فكرة معينة مهما كان شأنها ومهما كانت علاقتها بالحقيقة وواقع الأمر، لا لشىء إلا لمجرد التعصب لها.

فنحن لا يمكننا بحال أن نغمض الفكر عن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم المختلفة مثل ظاهرة الوحى ومعجزة القرآن وظاهرة التطابق بين دعوته ودعوة الأنبياء السابقين وجملة صفاته وأخلاقه، لمجرد أن تسلم لن فرضية أن محمداً عليه الصلاة والسلام ليس بنبىّ.

كما أنه لا يمكننا بحال أن نغمض الفكر عن التاريخ الذى ينص على بناء إبراهيم للكعبة المشرفة بأمر ووحى من الله جل جلاله وعن جملة ما تعاقب الأنبياء على الدعوة إليه من توحيد الله عز وجل والإيمان بالغيبيات المتعلقة بيوم الحشر والجزاء وما يتبعه من جنة ونار مما دلت عليه نصوص الكتب السماوية السابقة وصدقه التاريخ ووعته الدهور والأجيال، لمجرد أن تسلم لنا فرضية أن ما نسميه (بقايا عهد إبراهيم) فى العهد الجاهلى لم يكن إلا تقليد إبتدعها الفكر العربي وأن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما جاء ليطليها بطلاء الدين.

ومن الجدير بالذكر أن تعلم أن الناس يطيب لهم أن يزعموا هذا الزعم، لا يسوقون بين يدى زعمهم هذا ولا من خلفه أى برهان أو دليل مهما كان نوعه، إنما هو العرض المجرد لهذا التصور وبسطه فى عبارات ممطوطة مكررة ليس إلاّ.

ولعلك تطلب منى مثالاً على ذلك. إذاً فدونك فاقرأ كتاب بنية الفكر الدينى للمستشرق الإنكليزى المعروف (جيب) فستبصر حينئذ مدى ما تفعله العصبية العمياء بهؤلاء الناس تلك العصبية العجيبة التى كثيراً ما تحمل صاحبها على أن يتجرد حتى من مقومات كرامته وأن يتباله أمام شوامخ الأدلة والحقائق الناصعة كى لا يلزم بالخضوع لها.

إن بنية الفكر الدينى فى الإسلام بنظر جيب إنما هى تلك العقائد والأفكار الغيبية عند العرب : (الأحيائية العربية) فقد تأمل محمد صلى الله عليه وسلم فيها فغير ما أمكنه تغييره ثم عمد الى الباقى مما لم يمكنه التخلص منه فكساه حلّة الدين الإسلامى ثم لم ينس أن يدعمه بهيكل من الأفكار والمواقف الدينية الملائمة، وهنا واجهته المشكلة العظمى التى إعترضت سبيله، فهو يريد أن يبنى هذه الحياة الدينية لا للعرب فقط بل لشعوب وأمم بأسرها، فكان أن أقام هذه الحياة ضمن منهج القرآن.

تلك هى خلاصة أفكاره فى الكتاب. وتقرأ هذه الأفكار من أولها الى آخرها فلا تجده يقدم دليل واحد على شىء مما يقول. وتتأمل فى هذا الذى يعرضه، فلا تشك فى أن الرجل قد إستودع قواه العقلية بعيدا عن عن المكان الذى جلس يكتب فيه، واستعاض عنها بأوهام وخيالات خصبة راح يستوحى منهما كل ما يقرره ويحكم عليه.

ويبدوا أنه حينما جلس يكتب مقدمة الترجمة العربية له، تصور كيف أن القراء سينبذون أفكاره هذه عن الإسلام بإحتقار، فراح يعتذر !. راح يعتذر بأن قال : إن الأفكار التى أسست عليها هذه الفصول ليست بنات دماغ هذا المؤلف، بل سبقنى إليها ودلنى عليها جماعة من المفكرين ومن أقطاب المسلمين وقد يطول إحصاؤهم، فسأكتفى بذكر أحدهم بسبيل المثال، هو الشيخ الكبير شاه ولى الله الدهلوى. ثم نقل نصاً للشاه ولى الله الدهلوى عزاه الى ج 1 ص 122 من كتابه حجة الله البالغة، ويبدوا أنه إطمأن الى أن أحداً من القراء لن يجشم نفسه مشقة الرجوع الى الكتاب والتأكد من النص الذى فيه، فحرف على لسان الرجل ما شاء له هواه، واقتنص منه ما رآه كفيلا بتحوير معناه وتنكيس مقصده، حتى حمله بذلك من الوزر مالم يحمل وأنطقه بما هو منه برىء.

فأما النص كما إنتزعه واقتنصه من أصله فهو (أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث بعثة تتضمن بعثة أخرى، فالأولى إنما كانت الى بنى إسماعيل... وهذه البعثة تستوجب أن يكون مادة شريعته ما عندهم من الشرائع وسنن العبادات ووجوه الإرتفاقات، إذ الشرع إنما هو إصلاح ما عندهم لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلاً).

وأما النص الكامل الثابت فى كتاب حجة الله البالغة الى جانب نفس العبارات التى إقتنصها ليحور معناها فهو ما يلى : (واعلم أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالحنيفية الإسماعيلية، لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها، وذلك قول الله تعالى (ملة أبيكم إبراهيم) ولما كان الأمر فى ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة وسننها مقررة، إذ النبى إذا بعث الى قوم فيهم بقية سنة راشدة فلا معنى لتغييرها وتبديلها، بل الواجب تقريرها لأنه أطوع لنفوسهم وأثبت عند الإحتجاج عليهم، وكان بنوا إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل، فكانوا على تلك الشريعة الى أن وجدعمرو بن لحىّ، فأدخل فيها أشياء برأيه الكاسد، فضل وأضل، وشرع عبادة الأوثان وسيّب السوائب وبحر البحائر، فهنالك بطل الدين واختلط الصحيح بالفاسد وغلب عليهم الجهل والشرك والكفر فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم مقيما لعوجهم ومصلحاً لفسادهم، فنظر صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم فما كان منها موافقا لمنهاج إسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله أبقاه، وما كان منها تحريفا أو فساداً أو من شعائر الشرك أو الكفر أبطله وسجل على إبطاله).

ولا ريب أننا لا نسوق عمل مثل هذا (الباحث) وتحريفه للنظر والمناقشة فمن العبث مناقشة لغو مفضوح مثل هذا اللغو، ولكننا نقصد أن يعلم القارىء مدى ما تفعله العصبية العمياء بصاحبها. كما نريد أن يقف على حقيقة ما يتشدق به البعض عن منهجية البحث العلمى وموضوعيته لدى علماء الغرب ثم مدى ما يفعله التقليد الذليل الأعمى ببعض المسلمين أنفسهم.

وإذاً فقد أدركت حقيقة العلاقة بين الإسلام والفكر الجاهلى الذى كان سائدا لدى العرب قبل ظهوره، كما أدركت العلاقة بين العصر الجاهلى والملّة الحنيفية التى كان قد بعث بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وقد تجلى لك من ذلك، السبب الذى من أجله أقر

رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من العادات والمبادىء التى كانت سائدة عند العرب، فى حين أنه ألغى سائرها وذهب فى حربها والقضاء عليها كل مذهب.

وبذلك نكون قد إنتهينا من عرض هذه المقدمات التى لابد منها بين يدى دراستنا لجوهر السيرة النبوية واستنباط فقهها وعظاتها.

وستجد خلال أبحاثنا القادمة مزيداً من البراهين التى تؤكد ما أوضحناه وتزيد فى تجليته والكشف عن حقيقته.

بدء الوحي

روي الإمام البخاري عن السيدة عائشة تصف كيفية بدء الوحي وتقول :

أول ما بديء به رسول الله صلي الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يري رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الي أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الي خديجة فيتزود لمثلها، حتي جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال له إقرأ : فقال ما أنا بقاريء قال فأخذني فغطني حتي بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : إقرأ : فقلت ما أنا بقاريء، فأخذني وغطني حتي بلغ مني الجهد فقال إقرأ : فقلت : ما أنا بقاريء فأخذني وغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، فرجع بها رسول الله صلي الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل علي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني، زملوني، فزملوه، حتي ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت علي نفسي، فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين علي نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتي أتت به ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزي، وكان ابن عم خديجة، وكان إمرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل في العبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة يابن عم، إسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة : يابن أخي ماذا تري ؟ فأخبره رسول الله صلي الله عليه وسلم خبر ما رأي فقال له ورقة : هذا الناموس (أي جبريل أو الوحي) الذي نزل علي موسي ياليتني فيها جذعاً (شاباً قوياً) ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرنّك نصراً مؤزرا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي.

واختلف في الزمن الذي فتر فيه الوحي فقيل ثلاث سنوات، وقيل أقل من ذلك، والراجح ما رواه البيهقي من أن المدة كانت ستة أشهر. ثم روي البخاري عن جابر ابن عبد الله قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس علي كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت : زملوني زملوني فأنزل الله عز وجل : يا أيها المدثر قم فأنذر - الي قوله : والرجز فاهجر، فحمي الوحي وتواتر.

العبر والعظات :

حديث بدء الوحي هذا، هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته، وفهمه واليقين به هما المدخل الذي لابد منه الي اليقين بسائر ما جاء به النبي صلي الله عليه وسلم من أخبار غيبية وأوامر تشريعية ذلك أن حقيقة (الوحي) هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويشرع بواسطة رايه وعقله، والإنسان الذي يبلغ عن ربه دون أن يغير أو ينقص أو يزيد. من أجل هذا يهتم محرفوا التشكيك بالإسلام، بمعالجة موضوع الوحي في حياته صلي الله عليه وسلم، ويبذلون جهداً فكرياً شاقاً في تكلف وتمحل من أجل التلبيس في حقيقته والخلط بينه وبين الإلهام، وحديث النفس، بل وحتي الصرع أيضاً، وذلك لعلمهم بأن

موضوع الوحي هو منبع اليقين عند المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد صلي الله عليه وسلم من عند الله. فلئن أتيح تشكيكهم بحقيقته، أمكن تكفيرهم بكل ما قد يتفرع عنه من عقائد وأحكام، وأمكنهم أن يمهدوا لفكرة أن كل ما دعا إليه محمد صلي الله عليه وسلم من المبادئ والأحكام التشريعية ليس إلا من تفكيره الذاتي.

من أجل تحقيق هذه الغاية، أخذ محترفوا الغزو الفكري، يحاولون تأويل ظاهرة الوحي وتحريفها عما يرويه لنا المؤرخون وتحدث به صحاح السنة الشريفة. وإبعادها عن حقيقتها الظاهرة وراح كل منهم يسلك الي ذلك ما يروق لخياله من فنون التصورات المتكلفة الغريبة.

فمن متصور بأن محمداً صلي الله عليه وسلم لم يزل يفكر.... الي أن تكونت في نفسه بطريقة الكشف التدريجي المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالقضاء علي الوثنية، ومن مفضل علي ذلك إشاعة القول بأنه صلي الله عليه وسلم إنما تعلم القرآن ومباديء الإسلام من بحيرا الراهب، ومن قائل بأن الأمر ليس هذا ولا ذاك ولكن محمداً صلي الله عليه وسلم كان رجلاً عصبياً أو مصاباً بداء الصرع.

ونحن حينما ننظر الي مثل هذه التمحلات العجيبة التي لا يري العاقل مسوغاً لها إلا التهرب من الإقرار بنبوته صلي الله عليه وسلم، ندرك في جلاء ووضوح الحكمة الإلهية الباهرة من بدء نزول الوحي عليه صلي الله عليه وسلم بهذه الطريقة التي إستعرضناها الآن، في حديث الإمام البخاري.

لماذا رأي رسول الله جبريل بعيني رأسه لأول مرة، وقد كان بالإمكان أن يكون الوحي من وراء حجاب؟

لماذا قذف الله في قلبه عليه الصلاة والسلام الرعب منه والحيرة في فهم حقيقته، وقد كان ظاهر محبة الله لرسوله وحفظه له يقتضي أن يلقي السكينة في قلبه ويربط علي فؤاده فلا يخاف ولا يرتعد ؟

لماذا خشي علي نفسه أن يكون هذا الذي تمثل له في الغار آتياً من الجن، ولم يرجح علي ذلك أن يكون ملكا أميناً من عند الله ؟

لماذا أنفصل الوحي عنه بعد ذلك مدة طويلة، وجزع النبي صلي الله عليه وسلم بسبب ذلك جزعاً عظيماً حتى أنه كان يحاول - كما ذكر الإمام البخاري - أن يتردي من شواهق الجبال ؟

هذه أسئلة طبيعية بالنسبة للشكل الذي إبتدأ به الوحي، ولدي التفكير في أجوبتها نجدها تنطوي علي حكمة باهرة، ألا وهي أن يجد المفكر الحر فيها الحقيقة الناصعة الواقية عن الوقوع في شرك محترفي الغزو الفكري والتأثر بأخيلتهم المتكلفة الباطلة.

لقد فوجئ محمد عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له إقرأ، حتي يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتيا داخلياً مردّه الي حديث النفس المجرد، وإنما هي إستقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات، وضم الملك إليه إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلا في كل مرة إقرأ - يعتبر تأكيداً لهذا التلقيالخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصوّر من أن الأمر لا يعدو أن يكون خيالاً داخلياً فقط.

ولقد داخله الخوف والرعب مما سمع ورأي، حتي أنه قطع خلوته في الغار وأسرع عائداً الي البيت يرجف فؤاده، لكي يتضح لكل مفكر عاقل أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لم يكن متشوقاً للرسالة التي سيدعي الى حملها وبثها في العالم، وأن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أو يخطر في باله، وإنما طرأت طروءاً مثيراً علي حياته وفوجيء بها دون أي توقع سابق.ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير الي أن تتكون في نفسه - بطريقة الكشف التدريجي المستمر - عقيدة يؤمن بالدعوة إليها!

ثم إن شيئا من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي أو التأملات العلوية، لا يستدعي الخوف والرعب وامتقاع اللون، وليس ثمة أي انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخري، وإلا لاقتضي ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف والمفاجئة المتلاحقة. وأنت خبير أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغير اللون - كل ذلك من الإنفعالات القسرية التي لاسبيل الي إصطناعها والتمثيل بها، حتي لو فرضنا إمكان صدور المخادعة والتمثيل منه صلي الله عليه وسلم، وفرضنا المستحيل من إنقلاب طباعه المعروف بها قبل البعثة الي عكس ذلك تماما.

ويتجلي مزيد من صورة المفاجئة المخيفة لديه صلي الله عليه وسلم، في توهمه بأن هذا الذي رآه وغطّه وكلمه في الغار قد يكون آتياً من الجن، إذ قال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر :(لقد خشيت علي نفسي) أي من الجان، ولكنها طمأنته بأنه ليس ممن يطولهم أذي الشياطين والجان لما فيه من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة.

وقد كان الله عز وجل قادراً علي أن يربط علي قلب رسوله ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلمه ليس إلا جبريل : ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله الي الناس - ولكن الحكمة الإلهية الباهرة تريد إظهار الإنفصال التام بين شخصية محمد صلي الله عليه وسلم قبل البعثة وشخصيته بعدها، وبيان أن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يطبخ في ذهن محمد صلي الله عليه وسلم مسبقا ولم يتصور الدعوة إليه سلفاً.

ثم إن ما ألهم الله به خديجة من الذهاب به صلي الله عليه وسلم إلي ورقة بن نوفل، وعرض عليه الأمر، تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذي فوجيء به عليه الصلاة والسلام إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد نزل علي الأنبياء من قبله، وإزالة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلقة عن تفسير ما رآه وسمعه.

أما إنقطاع الوحي بعد ذلك، وتلبّثه ستة أشهر أو أكثر، علي الخلاف المعروف فيه، فينطوي علي مثل المعجزة الإلهية الرائعة، إذ في ذلك أبلغ الرد علي ما يفسر به محترفوا الغزو الفكري الوحي النبوي من أنه الإشراق النفسي المنبعث لديه من طول التأمل والتكرار وأنه أمر داخلي منبعث من ذاته نفسها.

لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء مدة طويلة، وأن يستبد به القلق من أجل ذلك، ثم يتحول القلق لديه الي خوف في نفسه أن يكون الله قد قلاه بعد أن أراد أن يشرفه بالوحي والرسالة، لسوء قد صدر منه، حتي لقد ضاقت الدنيا عليه وراحت تحدثه نفسه، كلما وصل الي ذروة جبل أن يلقي بنفسه منها ! الي أن رأي ذات يوم الملك الذي رآه في غار حراء، وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول : يا محمد أنت رسول الله الي الناس، فعاد مرة أخري وقد إستبد به الخوف والرعب الي البيت، حيث نزل عليه قوله تعالي (يا أيها المدثر قم فأنذر).

إن هذه الحالة التي مر بها رسول الله صلي الله عليه وسلم، تجعل مجرد التفكير في كون الوحي إلهاماً نفسياً، ضرباً من الجنون، إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لا يمر إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال.

وإذاً فإن حديث بدء الوحي علي النحو الذي ورد في الحديث الثابت الصحيح، ينطوي علي تهديم كل ما يحاول المشككون تخييله الي الناس في أمر الوحي والنبوة التي أكرم اله بها نبيه محمد صلي الله عليه وسلم وإذا تبين لك ذلك أدركت مدي الحكمة الإلهية العظيمة في أن تكون بداءة الوحي علي النحو الذي أراده الله عز وجل.

وربما عاد بعد ذلك محترفوا التشكيك، يسألون : فلماذا كان ينزل عليه صلي الله عليه وسلم الوحي بعد ذلك وهو بين الكثير من أصحابه فلا يري الملك أحد منهم سواه ؟

والجواب أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن تري بالأبصار إذ أن وسيلة الإبصار فينا محدودة بحدّ معين، وإلا لاقتضي ذلك أن يصبح الشيء معدوما إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته، علي أن من اليسير علي الله جل جلاله - وهو الخالق لهذه العيون المبصرة -أن يزيد في قوة ما شاء منها فيري ما لا تراه العيون الأخري، يقول مالك بن نبي في هذا الصدد : (إن عمي الألوان مثلا يقدم لنا حالة نموذجية، لايمكن أن تري فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون،وهناك أيضاً مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق البنفسجية لا تراها أعيننا، ولا شيء يثبت علمياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون، فلقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية).

ثم إن إستمرار الوحي بعد ذلك يحمل نفس الدلالة علي حقيقة الوحي وأنه ليس كما أراد المشككون : ظاهرة نفسية محضة، ونستطيع أن نجمل هذه اللالات فيما يلي :-

1- التمييز الواضح بين القرآن والحديث، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً، علي حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة له بالنبوة، بل لأن القرآن موحي به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل عليه السلام، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عز وجل الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو صلي الله عليه وسلم.

2- كان النبي صلي الله عليه وسلم يسأل عن بعض الأمور، فلا يجيب عليها، وربما مر علي سكوته زمن طويل، حتي إذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال، طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن في شأن سؤاله. وربما تصرف الرسول في بعض الأمور علي وجه معين، فتنزل الآيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه، وربما إنطوت علي عتب أو لوم له صلي الله عليه وسلم.

3- كان رسول الله صلي الله عليه وسلم أمياً.... وليس من الممكن أن يعلم الإنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية، كقصة يوسف.... وأم موسي حينما ألقت وليدها في اليم.... وقصة فرعون.... ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه صلي الله عليه وسلم أمياً : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) العنكبوت 48.

4- إن صدق النبي صلي الله عليه وسلم اربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك، يستدعي أن يكون صلي الله عليه وسلم من قبل ذلك صادقاً مع نفسه، ولذا فلا بدّ أن يكون قد قضي في دراسته لظاهرة الوحي علي أي شك يخايل لعينه أو فكره.

وكأن هذه الآية جاءت رداً لدراسته الأولي لشأن نفسه مع الوحي: (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) يونس 94

ولذا روي أن النبي

القسم الثالث : من البعثة الى الهجرة

مراحل الدعوة الإسلامية فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام

مرت الدعوة الإسلامية فى حياته عليه الصلاة والسلام منذ بعثته الى وفاته بأربع مراحل :

المرحلة الأولى : الدعوة سراً، واستمرت ثلاث سنوات.

المرحلة الثانية : الدعوة جهراً، وباللسان فقط، دون قتال واستمرت الى الهجرة.

المرحلة الثالثة : الدعوة جهراً مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشر واستمرت هذه المرحلة الى عام صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة : الدعوة جهراً مع محاربة كل من وقف فى سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول فى الإسلام - بعد فترة الدعوة والإعلام - من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين.

وكانت هذه المرحلة هى التى استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية، وحكم الجهاد فى الإسلام.

الدعوة سرا

بدأ النبى صلى الله عليه وسلم يستجيب لأمر الله، فأخذ يدعو الى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، ولكنه كان يدعو الى ذلك سراً حذراً من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها، فلم يكن عليه الصلاة والسلام يظهر الدعوة فى المجالس العمومية لقريش، ولم يكن يدعو إلاّ من كانت تشده إليه صلة قرابة أو معرفة سابقة.

وكان في أوائل من دخل الإسلام من هؤلاء خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وعلى ابن ابى طالب، وزيد ابن حارثة مولاه عليه الصلاة والسلام ومتبناه، وأبو بكر ابن أبي قحافة، وعثمان ابن عفان، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد ابن ابى وقاص... وغيرهم رضى الله عنهم جميعا.

فإن هؤلاء يلتقون بالنبى سراً وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب الى شعاب مكة يستخفى فيها عن أنظار قريش. ثم لما أربى الذين دخلوا فى الإسلام على الثلاثين - ما بين رجل وامرأة - إحتار لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أحدهم، وهو الأرقم ابن ابى الأرقم، ليلتقى بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم، وكانت حصيلة الدعوة فى هذه الفترة ما يقارب الأربعين رجلا وامرأة دخلوا فى الإسلام، عامتهم من الفقراء والأرقاء وممن لا شأن له بين قريش.

العبر والعظات :

1- وجه السرية فى بدء دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم :

لا ريب أن تكتم النبى صلى اله عليه وسلم فى دعوته الى الإسلام، خلال هذه السنوات الأولى، لم يكن بسبب الخوف على نفسه، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه الوحى وقوله تعالى : (يا أيها المدثر قم فأنذر) علم أنه رسول الله الى الناس، وهو لذلك كان يوقن بأن الإله الذى ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس، على أن الله عز وجل لو أمره من اول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علناً، لما توانى عن ذلك ساعة، ولو كان يتراءى له فى ذلك مصرعه.

ولكن الله عز وجل ألهمه - والإلهام للرسول نوع من الوحى - أن يبدأ الدعوة فى فترتها الأولى، بسرية وتكتم، وأن لا يلقى بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصيخ لها ويؤمن بها، تعليماً للدعاة من بعده، وإرشاداً لهم الى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التى ينبغى أن تتخذ من أجل الوصول الى غايات الدعوة وأهدافها، على أن لا يتغلب كل ذلك على الإعتماد والإتكال علىالله وحده وعلى ألا يذهب الإنسان فى التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفعالية فى تصوره وتفكيره، فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى، فضلا عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة الى الإسلام. ومن هنا تدرك، أن أسلوب دعوته عليه الصلاة والسلام فى هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبياً.

وبناءاً على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية، فى كل عصر أن يستعملوا المرونة فى كيفية الدعوة - من حيث التكتم والجهر، أو اللين والقوة - حسبما تقتضيه الظروف وحال العصر الذى يعيشون فيه، وهى مرونة حددتها الشريعة الإسلامية، إعتماداً على واقع

سيرته صلى الله عليه وسلم، ضمن الأشكال والمراحل الأربعة التى سبق ذكرها، على أن يكون النظر فى كل ذلك الى المصلحة للمسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية.

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب عليهم الظن أنهم سيقتلون من غير أى نكاية فى أعدائهم، إذا ما أجمعوا قتالهم، فينبغى أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس، لأن المصلحة المقابلة وهى مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع.

ويقرر العز ابن عبد السلام حرمة الخوض فى مثل هذا الجهاد قائلا : (فإذا لم تحصل النكاية وجب الإنهزام، لما فى الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وارغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة، ليس فى طيها مصلحة)

قلت : وتقديم مصلحة النفس هنا، من حيث الظاهر فقط.

أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد، فإنها فى الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضى- فى مثل هذا الحال - أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكى يتقدموا ويجاهدوا فى الميادين المفتوحة الأخرى، وإلا هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل.

و الخلاصة أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها ولا يجوز الإسرار فى الدعوة إذا أمكن الجهر بها بها وكان ذلك مفيداً، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين فى عقر دارهم إذا ما توافرت وسائل ذلك وأسبابه.

2- الأوائل الذين دخلوا فى الإسلام والحكمة من إسراعهم الى الإسلام قبل غيره :

وتحدثنا السيرة أن الذين دخلوا فى الإسلام فى هذه المرحلة كان معظمهم خليطا من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة من ذلك ؟ وما السر فى أن تأسس الدولة الإسلامية على أركان مثل هؤلاء الناس ؟.

والجواب أن هذه الظاهرة هى الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء فى فترتها الأولى، ألم تر الى قوم نوح كيف كانوا يعيرونه بأن أتباعه الذين من حوله ليسوا إلا من أراذل الناس ودهمائهم : (ما نراك إلا بشرا مثلنا، وما نراك إتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) هود 27، والى فرعون وشيعته كيف كانوا يرون أتباع موسى أذلاء مستضعفين، حتى قال الله عنهم بعد أن تحدث عن هلاك فرعون وأشياعه : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) الأعراف 137، وإلى ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحاً، كيف تولى عنه الزعماء المستكبرون، وآمن به الناس المستضعفون، حتى قال الله فى ذلك : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون، قال الذين استكبروا إنّا بالذى آمنتم به كافرون).

والسر فى ذلك أن حقيقة هذا الدين الذى بعث الله به عامة أنبيائه ورسله إنما هى الخروج عن سلطان الناس وحكمهم الى سلطان الله وحكمه وحده، وهى حقيقة تخدش أول ما تخدش ألوهية المتألهين وحاكمية المتحكمين وسطوة المتزعمين، وتناسب أول ما تناسب حالة المستضعفين والمستذلين والمستعبدين. فيكون رد الفعل أمام الدعوة الى الإسلام لله وحده وهو المكابرة والعناد من أولئك المتألهين والمتحكمين، والإذعان والإستجابة من هؤلاء المستضعفين، وانظر، فإن هذه الحقيقة تتجلى بوضوح فى الحديث الذى دار بين رستم قائد الجيش الفارسى فى وقعة القادسية، وربعى ابن عامر الجندى البسيط فى جيش سعد ابن أبى وقاص فقد قال له رستم : ما الذى دعاكم الى حربنا والولوع بديارنا ؟ فقال : جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ثم نظر الى صفوف الناس الراكعين عن يمين رستم وشماله، فقال متعجباً : (لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولكنى لا أرى قوماً أسفه منكم، إننا معشر المسلمين

لا يستعبد بعضنا بعضا، ولقد ظننت أنكم تتواسون كما نتواسى، وكان أحسن من الذى تصنعون أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض.......)

فالتفت المستضعفون بعضهم الى بعض يتهامسون : صدق والله العربى.......

أمّا القادة والرؤساء فقد وجدوا فى كلام ربعى هذا ما يشبه الصاعقة أصابت كيانهم فحطمته، وقال بعضهم لبعض : (لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه).

ولا يعنى هذا الكلام أن المستضعفين الذين أسرعوا الى الإسلام قبل غيرهم لم يكن دخولهم فيه عن إيمان بل عن قصد ورغبة فى التخلص من أذى المستكبرين وسلطانهم. ذلك لأن الإيمان بالله وحده والتصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، كان قدرا مشتركا بين زعماء قريش ومستضعفيها، فما منهم أحد إلا وهو يعلم صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يخبر عن ربه، غير أن الزعماء والكبراء فيهم كانت تصدهم زعامتهم عن الإنقياد والإتباع له، وأجلى مثل على ذلك عمه أبو طالب. وأما الفقراء والمستضعفون فما كان ليصدهم عن التجاوب مع إيمانهم والإنقياد له عليه الصلاة والسلام شىء، أضف الى ذلك ما يشعر به أحدهم عند إيمانه بألوهية الله وحده من الإعتزاز به وعدم الإكتراث بسلطان غير سلطانه أو قوة غير قوته، فهذا الشعور الذى هو ثمرة الإيمان بالله عز وجل، يزيد فى نفس الوقت قوة ويجعل صاحبه فى نشوة وسعادة غامرة.

ومن هنا تعلم عظم الفرية التى يفتريها بعض محترفى الغزو الفكرى فى هذا العصر، حينما يزعمون بأن الدعوة التى قام بها محمد صلى الله عليه وسلم، إنما هى من وحى بيئته العربية نفسها، وأنها إنما كانت تمثل حركة الفكر العربى إذ ذاك. فلو كان ذلك كذلك، لما كان رصيد هذه الدعوة خلال ثلاث سنوات من بدايتها أربعون رجلا وامرأة، عامتهم من الفقراء والمستضعفين والموالى والأرقاء، وفى مقدمتهم أخلاط من مختلفى الأعاجم : صهيب الرومى، وبلال الحبشى.

وسوف تجد فى البحوث القادمة أن بيئته العربية نفسها هى التى أرغمته على الهجرة من بلاده وأرغمت أتباعه من حوله على التفرق هنا وهناك والخروج الى بلاد الحبشة مهاجرين وذلك كراهية منها للدعوة التى زعموا أنه إنما كان يمثل بها نوازعها وأفكارها.

الجهر بالدعوة

قال ابن هشام : ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من النساء والرجال حتى فشى ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن يبادى الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه. ثم قال الله له : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقال له : (وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن إتبعك من المؤمنين وقل إنى أنا النذير المبين).

وحينئذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ أمر ربه، فاستجاب لقوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) بأن صعد الى جبل الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر، يا بنى عدىّ، حتى إجتمعوا، ةفجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر : ما هو ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم.. ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى (تبت يدا أبى لهب وتبّ). ثم نزل الرسول صلى الله عليه وسلم فاستجاب لقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) بأن جمع من حوله ذويه وأهل قرابته وعشيرته، فقال يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يابنى مرة ابن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد مناف : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لك من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلاها.

وكان رد فعل قريش أمام جهره بالدعوة، أن أدبروا عنه وتنكروالدعوته معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا الدين الذى ورثوه عن آبائهم وأصبح من تقاليد حياتهم وحينئذ نبههم الرسول صلى الله عليه وسلم الى ضرورة تحرير أفكارهم وعقولهم من عبودية الإتباع والتقليد، واستعمال العقل والمنطق، وأوضح لهم أن آلهتهم التى يعكفون على عبادتها لا تفيدهم أو تضرهم شيئا، وأن توارث آباءهم وأجدادهم لعبادتها ليس عذرا فى إتباعهم بدون دافع إلا دافع التقليد، كما قال الله عز وجل فى حقهم :(وإذا قيل لهم تعالو الى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) !؟

فلما عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، وجرّ إعتذارهم عن تمسكهم بعبادة الأصنام بأنها تقاليد آباءهم وأجدادهم، الى وصف آباءهم بعدم العقل - أعظموا الأمر، وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وإلا عمه أبا طالب الذى حدب عليه، ومنعه، وقام دونه.

العبر والعظات :

فى هذا المقطع من سيرته عليه الصلاة والسلام دلالات ثلاث نجملها فيما يلى :

<u>أولا :</u> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما صدع بالدعوة الى الإسلام فى قريش وعامة العرب فاجأهم بما لم يكونوا يتوقعونه أو يألفونه، تجد ذلك واضحا فى رد أبى لهب عليه، ثم فى إتفاق معظم المشركين من زعماء قريش على معاداته ومقاومته، وفى ذلك الرد القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بشرعته وأحكامه ثمرة من ثمار القومية، ويدعون أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما كان يمثل بدعوته التى دعا إليها آمال العرب ومطامحهم فى ذلك الحين.

وليس الباحث بحاجة الى أن يتعب نفسه بأى رد أو مناقشة لهذه الدعوى المضحكة عندما يطّلع على سيرته صلى الله عليه وسلم، فالذين يروجون لها بين الناس هم أول من يعلم سخفها وبطلانها، ولكنها على كل حال دعوى لابد منها فى نظرهم من أجل إزاحة الدين وسلطانه عن سبيل المبادىء والأفكار الأخرى، فليس المهم أن تكون الدعوى صحيحة حتى يمكن الترويج لها، ولكن المهم أن تكون مصلحتهم وأغراضهم تتطلب ترويج ذلك وادعاءه، ولعلك لم تنس ما ذكرناه مفصلا فى المقدمة الخامسة بصدد هذا الموضوع.

<u>ثانيا :</u> كان من الممكن أن لا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوى قرابته خاصة، إكتفاءاً بعموم أمره الآخر وهو قوله : ((فاصدع بما تؤمر) إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قرابته فى عموم الذين سيصدع أمامهم بالدعوة والإنذار، فما الحكمة من خصوصية الأمر بإنذار عشيرته الأقربين ؟

والجواب أن فى هذا إلماحاً الى درجة المسئلوية التى تتعلق بكل مسلم عموماً وأصحاب الدعوة خصوصاً.

فأدنى درجة فى المسئولية هى مسؤولية الشخص عن نفسه، ومن أجل إعطاء هذه الدرجة حقها استمرت فترة إبتداء الوحى تلك المدة الطويلة الى رأيناها، أى ريثما يطمئن محمد صلى الله عليه وسلم الى انه نبى مرسل، وأن ما ينزل عليه إنما هو الوحى من الله عز وجل فيؤمن هو بنفسه أولا ويوطن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مبادىء ونظم وأحكام.

أما الدرجة التى تليها، فهى مسؤولية المسلم عن أهله ومن يلوذون به من ذوى قرباه وتوجيها الى القيام بحق هذه المسئولية خصص الله الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به، وهذه الدرجة من المسؤولية يشترك فى ضرورة تحمل أعباءها كل مسلم صاحب أسرة أو قربى، وليس من إختلاف بين دعوة الرسول فى قومه ودعوة المسلم فى أسرته بين أقاربه، إلا أن الأول يدعو الى شرع جديد منزل عليه من الله تعالى، وهذا يدعو بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى بعث إليه، فهو يبلغ عنه وينطق بلسانه، وكما لا يجوز للنبى أة الرسول فى قومه أن يعقد عن تبليغهم ما اوحى إليه، فكذلك لا يجوز لرب الأسرة أن يقعد عن تبليغ أهله وأسرته ذلك، بل يجب أن يحملهم على إتباع ذلك حملا ويلزمهم به إلزاما.

أما الدرجة الثالثة، فهى مسئولية العالم عن حيّه وبلدته، ومسئولية الحاكم عن دولته وقومه، وكل منهما ينوبان فى ذلك مناب الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ هما الوارثان الشرعيان له لقوله عليه الصلاة والسلام : العلماء ورثة الأنبياء، ولتسمية الإمام والحاكم خليفة، أى خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. على أن العلم والدراية من لوازم الإمام والحاكم فى المجتمع الإسلامى، فليس من خلاف بين طبيعة المسئولية المنوطة برسول الله صلى الله عليه وسلم والمنوطة بالعلماء والحكام فى الإتساع والشمول. إلا أن الرسول كما قلنا يبلغ شرعا جديداً يوحى إليه من الله تعالى، أما هؤلاء فيمشون على قدمه ويهتدون بهديه ويلتزمون سنته وسيرته فيما يفعلون ويبلغون.

و إذاً فقد كان صلى الله عليه وسلم يتحمل المسؤولية تجاه نفسه بوصف كونه مكلفاً، وكان يتحمل المسئولية تجاه أسرته وأهله بوصف كونه رب أسرة وذا آصرة وقربى، ثم كان يتحمل المسئولية تجاه الناس كلهم بوصف كونه نبيا ورسولا مرسلا من الله عز وجل.

ويشترك مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الأولى كل مكلف، وفى الثانية كل صاحب أسرة، وفى الثالثة العلماء والحكام.

ثالثا : عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه أن يأسروا أنفسهم للتقاليد الموروثة عن آبائهم وأجدادهم دون تفكر منهم فى مدى صلاحها وفسادها، ودعاهم الى تحرير عقولهم من أسر الإتباع الإعمى وعصبية التقاليد التى لا تقوم على شى ءمن أساس الفكر والمنطق.

وفى هذا دليل على أن مبنى هذا الدين - بما فيه من عقائد وتشريعات - إنما هو على العقل والمنطق، وأن المتوخى فى التمسك به إنما هو مصلحة العباد العاجلة والآجلة، ولذلك كان من أهم شروط صحة الإيمان بالله وما يتبعه من امور إعتقادية أخرى أن يقوم على أساس من اليقين والفكر الحر، دون أدنى تأثر بأى عرف أو تقليد، حتى قال صاحب جوهرة التوحيد فى أرجوزته المعروفة :

فكل من قلد فى التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد

ومن هنا تعلم أن الدين جاء حرباً على التقاليد، والدخول فى أسرها، إذ هو قائم فى كل مبادئه وأحكامه على أساس العقل والمنطق السليمين، على حين أن التقاليد قائمة على مجرد باعث الإقتداء والإتباع، أى دون أن يكون فيه لعنصر البحث والتفكير الحر أى تأثير، إذ أن كلمة التقاليد إنما تعنى، فى وضع اللغة العربية وما تواضع عليه عرف علماء افجتماع (مجموعة العادات التى يرثها الآباء عن الأجداد، ا، التى تسرى بمجرد عامل الإحتكاك فى بيئة من البيئات أو بلدة من البلدان بشرط أن يكون عامل التقليد المجرد هو العصب الرئيسى الذى يمد فى تلك العادات من أجل الحياة والبقاء).

فجميع ما اعتاده الناس من أنماط الحياة فى مجتمعاتهم، ومن مظاهر اللهو فى أفراحهم، ومن أشكال الحداد فى مآسيهم وأحزانهم، مما حاكته عوامل التوارث القديم أو الإقتباس التلقائى عن طريق التأثر والإحتكاك جميع ذلك يسمى فى إصطلاح اللغة وعلم الإجتماع (تقاليد).

إذا علمت هذا، أدركت أن الإسلام لا يمكن أن ينطوى على شىء مما يسمى بالتقاليد، سواء ما كان منه متعلقا بالعقيدة أو مختلف النظم والأحكام، إذ العقيدة قائمة على أساس العقل والمنطق، والأحكام قائمة على أساس المصالح الدنيوية والأخروية وهى مصالح تدرك بالتفكير والتدبّر الذاتى وإن قصر عن إدراكها فهم بعض العقول لبعض العوارض والأسباب.

وإذا تبين لك هذا، أدركت مدى خطورة الخطيئة التى يقع فيها من يطلقون كلمة (التقاليد الإسلامية) على مختلف ما يتضمنه الإسلام من عبادات وأحكام تشريعية وأخلاقية.

إذ من شأن هذه التسمية الظالمة وترويجها أن توحى الى الأذهان أن قيمة السلوك والخلق الإسلامى ليست بسبب كونه مبدأ إلهيا يكمن فيه سر سعادة البشر - كما هو الحق - وإنما سبب أن كلا من النظام والخلق الإسلامى إنما هو عادات قديمة موروثة من الآباء

والأجداد، ولا ريب أن النتيجة القطعية لهذا الإيحاء أن يضيق أكثر الناس ذرعاً بهذا الميراث القديم الذى يراد فرضه على المجتمع فى عصر كل ما فيه متطور ومتقدم وجديد، والواقع أن إطلاق هذا الشعار على الأحكام الإسلامية، ليس فى مصدره خطيئة عفوية، وإنما هو حلقة فى سلسلة حرب الإسلام بالشعارات الباطلة المدسوسة.

فالغرض الأول من ترويج كلمة (تقاليد إسلامية)، هو أن يؤتى بمعظم نظم الإسلام وأحكامه، ويسدل فوقها شعار (التقاليد) حتى إذا مر على ذلك زمن، وارتبط معنى التقاليد بنظم الإسلام وأحكامه فى أذهان الناس، ونسوا أن هذه النظم إنما هى فى حقيقتها مبادىء قائمة على أساس ما يقتضيه العقل والبحث السليم - أصبح من السهل على أعداء الإسلام أن يحاربوه من النقطة التى تنفذ إليها حرابهم وسهامهم، إذ لا ريب أن المسلمين إذا استفاقوا ليجدوا معظم مبادىء الإسلام وأحكامه، كشؤون الزواج والطلاق، وحجاب المراة وصيانتها، وعامة قضايا السلوك والأخلاق - قد أسبل عليها رداء التقاليد، فإن من الطبيعى أن يجدوا بعد ذلك من يدعو الى نبذ التقاليد والخروج عن إسارها وكسر قيودها، خصوصا فى هذا العصر الذى أصبحت السيادة فيه لحرية الرأى والتفكير.

ولكن الحقيقة أن الإسلام لا تقاليد فيه.

إنه الدين الذى جاء ليخلص العقل من براثن التقاليد، كما رأينا فى أولى خطوات الدعوة التى قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن جميع ما أتى به الإسلام من نظم وتشريعات، إنما هى مبادىء والمبدأ هو ما يقوم على أساس من التفكير والعقل، ويستهدف الوصول الى مقصد معين، وإذا كانت المبادىء البشرية قد تخطىء الصواب أحياناً لشذوذ فى أفكار أصحابها، فإن مبادىء الإسلام لا تخطىء الصواب أبداً لأن الذى شرعها هو خالق العقول والأفكار، وفى هذا وحده دليل عقلى كاف للإقتناع بهذه المبادىء واليقين بوجاهتها وصوابها. أما التقاليد، فإنما هى تلك التيارات السلوكية التى ينجرف فيها الناس تلقائياً بمجرد باعث المحاكاة والتقليد لدى الإنسان.

المبادىء هى الخط الذى يجب أن ينضبط بها تطور الزمن، لا العكس.

والتقاليد هى مجموعة الطفيليات التى نبتت تلقائياً وسط الحقول الفكرية للمجتمع فهى الحشائش الضارة التى لابد من إجتثاثها وتنقية سبيل التفكير السليم عنها.

الإيـــــذاء

ثم إن قريشاً اشتدت فى معاداتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، اما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد لاقى من إيذائهم أنواعاص كثيرة، من ذلك ما رواه عبد الله ابن عمرو بن العاص أنه قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبي معيط فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل ابو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال ك أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟. ومنه ما رواه عبد الله ابن عمر قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله ناس من قريش، جاء عقبة ابن أبي معيط بسلا جزور فقذفه على ظهر النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة رضى الله عنها فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك، ومنه ما كانوا يواجهونه به من فنون الهزء والغمز واللمز كلما مشى بينهم أو مر بهم فى طرقاتهم أو نواديهم.

ومنه ما رواه الطبرى وابن اسحاق أن بعضهم عمد الى قبضة من التراب فنثرها على راسه وهو يسير فى بعض سكك مكة، وعاد الى بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهى تبكى ورسول الله يقول لها : يا بنية لا تبكى فإن الله مانع أباك.

وأما اصحابه رضوان الله عليهم، فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب، حتى مات منهم من مات تحت التعذيب وعمى من عمى، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئاً، ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج من العذاب الذى لاقاه كل منهم، ولكنا ننقل هنا ما رواه الإمام البخارى عن خبّاب ابن الأرتّ أنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردةً وهو فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت يا رسول الله : ألا تدعو لنا ؟ فقعد وهو محمر الوجه، فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف إلا الله.

العبر والعظات :

أول ما قد يخطر فى بال المتأمل، حينما يرى قصة ما لقيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين، من صنوف العذاب والإيذاء، هو أن يتساءل : فيم هذا العذاب الذى لقيه النبى وأصحابه وهم على الحق ؟ ولماذا لم يعصمهم الله عز وجل منه وهم جنوده وفيهم رسوله يدعون الى دينه ويجاهدون فى سبيله.

والجواب أن أول صفة للإنسان فى الدنيا، أنه مكلف، أى أنه مطالب من قبل الله تعالى بحمل ما فيه كلفة ومشقة، وأمر الدعوةالى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى، إذ لا معنى للعبودية لله تعالى إن لم يكن ثمة تكليف، وعبودية الإنسان لله عز وجل ضرورة من ضرورات ألوهيته سبحانه وتعالى، فلا معنى للإيمان بها إن لم ندرك عبوديتنا له.

فقد إستلزمت العبودية - إذاً - التكليف، واستلزم التكليف تحميل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، ومن أجل هذا كان واجب عباد الله فى هذه الدنيا تحقيق أمرين إثنين :

أولهما : التمسك بالإسلام وإقامة المجتمع الإسلامى الصحيح.

ثانيهما : سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر وبذل المهج والمال من أجل تحقيق ذلك.

أى أن الله عز وجل كلفنا بالإيمان بالغاية، وكلفنا الى جانب ذلك بسلوك الوسيلة الشاقة الطويلة الى هذه الغاية مهما بلغت المسألة فى خطورتها وصعوبتها.

ولو شاء الله لجعل السبيل الى إقامة المجتمع الإسلامى بعد الإيمان به سهلاً معبداً، ولكن السير فى هذه السبيل لا يدل حينئذ على شىء من عبودية السالك لله تعالى وعلى أنه قد باع حياته وماله له عز وجل يوم أن أعلن الإيمان به، وعلى أن جميع أهوائه تابعة ومنقادة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولأمكن حينئذ أن يلتقى على هذه الجادة المؤمن والمنافق والصادق والكاذب، فلا يتمحص الواحد منهم عن الآخر، وإذاً فإن ما يلاقيه الدعاة الى الله تعالى والمجاهدون فى سبيل إقامة المجتمع الإسلامى، سنة إلهية فى الكون منذ فجر التاريخ تقتضيها حكم ثلاث :

أولا : صفة العبودية الملازمة للإنسان، لله عز وجل، وصدق الله إذ يقول : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

ثانياً : صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية، فما من رجل أو إمرأة يبلغ أحدهما عاقلا سن الرشد، إلا وهو مكلف من قبل الله تعالى بتحقيق شرعة الإسلام فى نفسه وتحقيق النظام الإسلامى فى مجتمعه، على أن يتحمل فى سبيل ذلك كثيراً من الشدة والأذى، حتى يتحقق معنى التكليف.

ثالثاً : إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فلو ترك الله تعالى الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على السنتهم فقط، لاستوى الصادق والكاذب، ولكن الفتنة والإبتلاء، هما الميزان الذى يميز الصادق عن الكاذب، وصدق اللهالقائل فى محكم كتابه :(ألم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولو آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين) العنكبوت 1،2 والقائل :(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين).

وإذا كانت هذه هى سنة الله فى عباده، لفن تجد لسنةالله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا حتى مع أنبيائه وأصفيائه، من أجل ذلك أوذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوذى من قبله الأنبياء جميعاً والمرسلين، ومن أجل ذلك أوذى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمى من عمى، رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله عز وجل.

فإذا أدركت طبيعة العذاب الذى يلقاه المسلم فى طريقه الى إقامة المجتمع الإسلامى، علمت أنه ليس فى حقيقته عقبات أو سدود تصد السالك أو المجاهد عن بلوغ الغاية، كما قد يتوهم بعض الناس، بل هو سلوك فى الطريق الطبيعى الذى خطه الله تعالى بين المسلم والغاية التى أمره بالمسير إليها، أى أن المسلمين يتقربون الى الغاية التى كلفهم الله بالوصول إليها، بمقدار ما يجدونه فى طريقهم الى ذلك من العذاب، وبمقدار ما يتساقط منهم من الشهداء.

ولذا فإنه لا ينبغى للمسلم أن يتوهم اليأس، إذا ما عانى شيئاً من المشقة أو المحنة، بل العكس هو الأمر المنسجم مع طبيعة هذا الدين أى أن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من الضر والنكبات سعياً الى تحقيق أمر ربهم عز وجل.

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) فقد كان جواب أولئك الذين لم يفهموا طبيعة العمل الإسلامى، وتوهموا أن هذا الذى يرونه من الأذى والعذاب إنما هو عنوان ودليل على إبتعادهم عن النصر - كان جواب هؤلاء من الله تعالى : ألا إن نصر الله قريب.

وتجد برهان هذا جلياً فيما رويناه من قصة خباب بن الأرتّ رضى الله عنه، حينما جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد غالبه العذاب الذى إكتوى به معظم جسده، يشكو إليه صلى الله عليه وسلم ويسأله الدعاء للمسلمين والنصر، فقد كام جواب الرسول صلى الله عليه وسلم له بهذا المعنى، إن كنت تتعجب من العذاب وألأذى وتستغرب أن ترى ذلك فى سبيل الله عز وجل فاعلم أن هذا هو السبيل... وتلك هى سنة الله فى جميع عباده الذين آمنوا به : مشط الكثير منهم فى سبيل دينه بأمشاط الحديد ما بين المفرق والقدم فما صدهم ذلك شىء من دين الله.

وإن كنت ترى فى العذاب دلائل اليأس والقنوط من النصر، فأنت متوهم، بل الحق هو أن تجد العذاب والألم سيراً فى الطريق ودنوّا من النصر، وسينصرن الله هذا الدين حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخشى إلا الله وفى رواية زائدة : والذئب على غنمه.

وهذا المعنى نفسه هو السر فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشّر أصحابه بأن الله سيفتح لهم بلاد فارس والروم، ومع ذلك فلم تفتح هذه البلاد عليهم إلا بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بزمن غير يسير ولقد كان من مقتضى فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه ومدى محبة الله عز وجل له أن يفتح كل تلك البلاد فى حياته وبقيادته وتحت إشرافه، بدلا من أن يسجل التاريخ فتحها بقيادة أحد أتباعه صلى الله عليه وسلم. لقد كان هذا قريباً من محبة الله لرسوله، لولا أن النصر مرتبط بالقانون الذى ذكرناه.

لم يكن المسلمون فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قد دفعوا من اجل إنتصارهم فى بلاد الشام والعراق أقساط الثمن كله، ولابد قبل النصر من دفع كامل الثمن، لابد من ذلك ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم موجوداً بينهم، وليست المسألةأن ترتبط

الفتوحات باسم الرسول صلى الله عليه وسلم وتتم بقيادته وتحت إشرافه من اجل عظيم محبة الله تعالى له، ولكن المسألة هى أن يبرهن المسلمون الذين بايعوا الله ورسوله على صدقهم فى هذه البيعة، وأن يصدقوا فيما عاهدوا الله عليه يوم أن وقعوا بالقبول والرضى تحت قول الله تعالى: (إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون).

سياسة المفاوضات

جاء فيما يرويه ابن هشام عن ابن اسحاق أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً ذا بصيرة ورأى فى قومه - قال فى نادى قريش : يا معشر قريش، ألا أقوم الى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمور لعله يقبل بعضها فنعطيه أيّها شاء ويكف عنا ؟ فقالوا بلى يا أبا الوليد : قم إليه فكلمه، فجاء عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يابن أخى، إنك منا حيث علمت من الشرف فى العشيرة والمكانة فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم.... فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل يا أبا الوليد أسمع.

قال يابن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم.... قال فاسمع منى، ثم قال :(بسم الله الرحمن الرحيم، حم، تنزيلمن الحمن الرحيم، كتاب فصلت أياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذ1يراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه، وويل للمشركين) ثم مضى رسول الله فى القراءة وعتبة يسمع حتى وصل الى قول الله تعالى (فإن أعرضوا فقد أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة بفيه وناشده أن يكف عن القراءة، وذلك خوفا مما تضمنته الآية من تهديد، ثم عاد عتبة الى أصحابه فلما جلس بينهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائى أنى سمعت قولا ما سمعت بمثله قط والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.... يا معشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم.

قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال هذا رأى فاصنعوا ما بدا لكم.

وروى الطبرى وابن كثير وغيرهما أن نفرا من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل جاؤوا فعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه المال حتى يكون أغناهم وأن يزوجوه أجمل أبكارهم على أن يترك شتم آلهتهم وتسفيه عاداتهم، فلما رفض إلا الدعوة الى الحق الذى بعث به، قالوا نعبد إلهك يوماً وتعبد آلهتنا يوما، فرفض ذلك أيضا ونزل قوله تعالى : (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين).

ثم إن أشراف قريش عادوا فكرروا المحاولة التى قام بها عتبة ابن ربيعة فذهبوا إليه مجتمعين، وعرضوا عليه الزعامة والمال، وعرضوا عليه الطب إن كان هذا الذى يأتيه رئيا من الجن، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون بشيراًونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم.

فقالوا له : فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل امءاً ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليفجر لنا أنهاراً كأنهار الشام

والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن بعث لنا منهم قصىّ ابن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل وليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبغى.... فإ، صنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول، فقال لهم : ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا، ثم إنهم قالوا له - بعد طول كلام وخصام - إنا قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل فى اليمامة يقال له الرحمن، وأنّا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وأنّا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك أو تهلكنا. ثم قاموا وانصرفوا عنه.

العبر والعظات :

فى هذا المشهد الذى عرضناه من سيرته صلى الله عليه وسلم ثلاث دلائل كل واحدة منها على جانب كبير من الأهمية :

الدلالة الأولى : وهى توضح لنا فى تمحيص دقيق حقيقة الدعوة التى قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم وتفصلها عن كل ما قد يلتبس بها من الأهداف والأغراض التى قد يضمرها فى أنفسهم عادة أرباب الدعوات الجديدة والمنادون بالثورة والإصلاح.

هل النبى صلى اله عليه وسلم يضمر من وراء دعوته الوصول الى ملك ؟ أو لعله يضمر الوصول الى مستوى رفيع من الزعامة أو الغنى، أو لعل الأمر لا يعدو خيالات تتراءى له بسبب مرض يعانيه ؟.

كل هذه الإحتمالات، وسائل قد يتذرع بها محترفوا الغزو الفكرى وأعداء هذا الدين ولكن يا لأسرار الحياة العظيمة التى هيأها رب العالمين لرسوله !.... لقد ملأ الله عز وجل حياة رسوله بالمواقف والمشاهد التى تقطع دابر كل إحتمال، وتقطع السبيل الى كل وسواس، وتدع أرباب الغزو الفكرى حيارى فى الطريقة التى ينبغى لهم أن يسلكوها فى حربهم الفكرية.

كان من جليل حكمةالله تعالى أن يقوم مشركوا قريش بسلسلة من المفاوضات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن صوروا فى أنفسهم كل هذه الإحتمالات، وهم أدرى الناس بطبيعة دعوته والغاية البعيدة من رسالته وبأنه لن ينزل عند شىء من مغرياتهم، ولكن هكذا أرادت الحكمة الإلهية حتى ينطق التاريخ بتكذيب كل من سأتى من محترفى الغزو الفكرى والتشكيك مع الزمن.

لقد فكر أمثال كريمر وفان فلوتن طويلا.... ثم لم يجدوا من سبيل لأداء مهمة التشكيك والغزو إلا أن يغمضوا أعينهم عن الحقيقة ويزعموا أن دوافع محمد عليه الصلاة والسلام فى دعوته إنما كانت الرغبة فى السيادة والملك، وإن صدموا رؤوسهم فى هذا الزعم بصخور عاتية تقذفهم وتردهم الى الوراء أشواطاً. لقد سخر الله من قبلهم عتبة ابن ربيعة وأمثاله، لحمل هذه الدوافع والآمال ووضعها بين يدى محمد صلى الله عليه وسلم لينالها قريبة سائغة وليبصر قريش كلها وقد دانت له وألقت من يدها ما رفعته من السلاح ووسائل التعذيب فى وجهه ووجه أصحابه، فلماذا لم يلن الرسول لهم، ولم يتحول الى هذه الغنيمة التى سيقت إليه ما دام أنها الدافع له من وراء رسالته ودعوته ؟.

وهل ينصت طالب الملك والزعامة لمن سعى يعرضهما عليه، فى مفاوضة طويلة وتخويف وتهديد ورجاء، ليقول لهم أخيرا : (ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً..... فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم).

ثم إن معيشته الحياتية كانت مطابقة لكلامه هذا، فلم يعرض عن الملك والزعامة بلسانه، ليصل إليهما خلسة بسعيه وعمله، بل كان صلى الله عليه وسلم بسيطا فى مأكله ومشربه ، ولا يعلو عما عليه حال الفقراء والمساكين. قالت عائشة رضى الله عنها فيما يرويه البخارى (لقد توفى النبى صلى الله عليه وسلم وما فى رقّى من شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رفّ لى فأكلت منه حتى طال علىّ

) ويقول أنس رضى الله عنه فيما يرويه البخارى أيضا : لم يأكل النبى صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات، وما أكل خبزاً مرققا حتى مات).

وكان بسيطا للغاية فى ملبسه وأثاث بيته، يؤثر فى جنبه الحصير وما عرف أنه نام على شىء وثير، حتى إن نساءه جئن إليه يوما وفيهن السيدة عائشة رضى الله عنها يشتكين الفاقة ويطالبنه بمزيد من النفقة لزينتهن ولباسهن حتى لا تكون إحداهن أقل شأناً من مثيلاتها من نساء الصحابة، فأطرق ولم يجب، ثم نزل قول الله تعالى : (يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما)، فتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن هاتين الآيتين، ثم خيرهن بين قبول العيش معه على الحالة التى هو فيها، أو الإصرار على مطالبهن من النفقة وزيادة الزينة والمال وحينئذ يفارقههن ويسرحهن سراحاً جميلا، فاخترن العيش معه على ما هو عليه.

فكيف يشك العقل - أى عقل - بعد هذا كله فى صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكيف يصح أن يتوهم الفكر او الخيال بأنه قد يكون مدفوعا برغبة الزعامة أو الطمع فى الغنى ؟ فهذه هى الدلالة الأولى التى تؤخذ من هذا المشهد الذى ذكرناه.

الدلالة الثانية : وهى تبين لنا معنى الحكمة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمسك ويتصف بها. هل الحكمة أن تضع أنت السياسة التى تراها فى سير الدعوة مهما كانت كيفيتها ومهما كان نوعها ؟ وهل أعطاك الشارع صلاحية أن تسلك أى سبيل أو وسيلة تراها ما دام هدفك من وراء ذلك هو الحق ؟

لا...... إن الشريعة الإسلامية تعبدتنا بالوسائل كما تعبدتنا بالغايات. فليس لك أن تسلك الى الغاية التى شرعها الله لك إلا الطريق المعينة التى جعلها الله وسيلة إليها وللحكمة والسياسة الشرعية معان معتبرة، ولكن فى حدود هذه الوسائل المشروعة فقط.

والدليل ما رويناه آنفا، فقد كان من المتصور فى باب الحكمة والسياسة الشرعية أن يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم بالزعامة والملك على أن يجمع فى نفسه إتخاذ الملك والزعامة وسيلة الى تحقيق دعوة الإسلام فيما بعد، خصوصاً وأن للسلطان والملك وازعاً قوياً فى النفوس، وحسبك أن أرباب الدعوات والمذاهب ينتهزون فرصة الإستيلاء على الحكم كى يستعينوا بسلطانه على فرض دعوتهم ومذاهبهم على الناس. ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يرض مثل هذه السياسة والوسيلة الى دعوته، لأن ذلك ينافى مبادىء الدعوة نفسها.

لو جاز أن يكون مثل هذا الأسلوب نوعا من أنواع الحكمة والسياسة الرشيدة، لإمحى الفرق بين الصادق الصريح فى صدقه والكاذب الذى يخادع فى كذبه ولتلاقى الصادقون فى دعوتهم مع الدجالين والمشعوذين على طريق واحدة عريضة إسمها : الحكمة والسياسة.

إن فلسفة هذا الدين تقوم على عماد الشرف والصدق فى كل من الوسيلة والغاية، فكما أن الغاية لا يقوّمها إلا الصدق والشرف وكلمة الحق، فكذلك الوسيلة لا ينبغى أن يخطّها إلا مبدأ الصدق والشرف وكلمة الحق، ومن هنا يحتاج أرباب الدعوة الإسلامية فى معظم حالاتهم وظروفهم الى التضحية والجهاد لأن السبيل التى يسلكونها لا تسمح لهم بالتعرج كثيراً ذات اليمين وذات الشمال.

ومن الخطأ أن تحسب مبدأ الحكمة فى الدعوة إنما شرع من أجل تسهيل عمل الداعى أو من أجل تفادى المآسى والأتعاب، بل السر فى مشروعية الحكمة فى الدعوة إنما هو سلوك أقرب الوسائل الى عقول الناس وأفكارهم، وعنى هذا أنه إذا إختلفت الأحوال وقامت عثرات الصد والعناد دون سبيل الدعوة، فإن الحكمة حينئذ إنما هى إعداد العدة للجهاد والتضحية بالنفس والمال، إن الحكمة هى أن تضع الشىء فى مكانه.وهذا هو الفرق بين الحكمة والمخادعة، وبين الحكمة والمسالمة.

وأنت خبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما إستبشر بما رآه من دلائل إقبال بعض زعماء قريش على فهم الدين، إنصرف إليهم بكليته مبتهجاً يكلمهم ويشرح لهم ما يستفسرون عنه من حقائق الإسلام، حتى دعاه ذلك الإستبشار والطمع فى هدايتهم الى أن

يعرض عن الصحابى الضرير عبد الله ابن أم مكتوم حينما مر بهم فوقف الى جانبهم يستمع، وأخذ هو الآخر يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك منه عليه الصلاة والسلام حرصاً على الفرصة أن لا تفوته وأملا فى أن يجيب عبد الله ابن أم مكتوم فى أى وقت آخر، فعاتبه الله على ذلك فى سورة : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى) وأنكر عليه إجتهاده هذا،وإن كانت غايته مشروعة ونبيلة، ذلك لأن الوسيلة قد إنطوت على كسر خاطر مسلم أو ما يدل على الإعراض عنه وعدم الإلتفات إليه من أجل إجتذاب قلوب المشركين فهى ليست بمشروعة ولا مقبولة.

والخلاصة أنه ليس لأحد من الناس أن يغير شيئا من أحكام الإسلام ومبادئه، أو يتجاوز شيئاً من حدوده أو يستهين بها، باسم إتباع الحكمة فى النصيحة والدعوة لأن الحكمة لا تعتبر إلا إذا كانت مقيدة ومنضبطة ضمن حدود الشريعة ومبادئها وأخلاقها.

الدلالة الثالثة : ونستفيدها من موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من تلك المطالب التى طلبتها قريش منه صلى الله عليه وسلم شرطاً لإتباعها إياه، وهو موقف أيده الله فيه، ففيه كما ذكر عامة المسلمين نزل فيه قول الله تعالى :(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) .

وليس السبب فى عدم إستجابة الله لهم ذلك، ما قد يظنه البعض من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما أوتى من المعجزات إلا معجزة القرآن، ولذلك لم يستجب لهم مطالبهم، وإنما السبب أن الله عز وجل علم أنهم إنما يطالبون بذلك كفراً وعناداً وإمعاناً فى الإستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم، كما هو واضح فى أسلوب طلبهم ونوع المطاليب التى عرضوها، ولو علم الله عز وجل فيهم صدق الطلب وحسن النية وأنهم مقبلون فى ذلك على محاولة التأكد من صدق النبى عليه الصلاة والسلام، لحقق لهم ذلك، ولكن أمر قريش فى ذلك مطابق لما وصفه الله تعالى فى آية أخرى وهى قوله تعالى :(ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) وإذا علمت ذلك أدركت أنه لا تنافى بين هذا وما ثبت من إكرام الله لنبيه عليه الصلاة والسلام بالمعجزات الكثيرة المختلفة مما سنفصل القول فيه قريباً إن شاء الله.

الحصار الإقتصادى

ورد بأسانيد مختلفة عن موسى ابن عقبة، وعن ابن اسحاق وعن غيرهما أن كفار قريش أجمعوا امرهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلموا فى ذلك بنى هاشم وبنى المطلب ولكنهم أبوا تسليمه صلى اله عليه وسلم إليهم، فلما عجزت قريش عن قتله صلى الله عليه وسلم أجمعوا على منابذته ومنابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بنى هاشم وبنى المطلب، فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلم بنو المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وعلقوا الكتاب فى جوف الكعبة. والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات، بدءاً من المحرم سنة سبع من البعثة الى السنة العاشرة منها، وقيل استمر ذلك سنتين فقط.

ورواية موسى ابن عقبة تدل على أن ذلك كان قبل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى الحبشة، وإنما أمرهم بها أثناء هذا الحصار. أما رواية ابن اسحاق فتدل على أن كتابة الصحيفة كانت بعد هجرة أصحابه صلى الله عليه وسلم الى الحبشة وبعد إسلام عمر.

وحوصر بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين، ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب بنى المطلب، وإنما شعاب مكة متفرقة، واجتمع فيه من بنى هاشم وبنى المطلب المسلمون والكافرون، أما المسلمون فتديناً وأما الكافرون فحمية، إلا ما كان من أبى لهب، عبد العزى ابن عبد المطلب، فإنه خرج الى قريش فظاهر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

فجهد النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون جهداً شديداً فى هذه الأعوام الثلاث واشتد عليهم البلاء، وفى الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر. وذكر السهيلى أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتى أحد أصحاب رسول الله الى السوق ليشترى شيئا من الطعام يقتاته لأهله، فيقوم أبو لهب فيقول يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يده شىء يعللهم به.

فلما كان على رأس ثلاث سنوات من بدء هذا الحصار، تلاوم قوم من بنى قصى، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه،وأرسل الله على صحيفتهم التى كتب فيها نص المعاهدة الأرضة فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التى فيها ذكر الله عز وجل.

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب بذلك، فقال له أبو طالب : أربك أخبرك بذلك ؟ قال نعم، فمضى فى عصابة من قومه الى قريش، فطلب منهم أن يأتوه بالصحيفة موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاؤو بها وهى مطوية، فقال أبو طالب : إن ابن أخى قد أخبرنى ولم يكذبنى قط، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التى كتبتم الأرضة فأتت على كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا وإن كان الذى يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون، فقالوا قد رضينا بالذى تقول.

ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا سحر ابن أخيك ! وزادهم ذلك بغياً وعدواناً.

ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش، مشوا فى نقض الصحيفة، وإنهاء هذا الحصار. وهم : هشام ابن عمرابن الحارث، وزهير ابن أمية، والمطعم ابن عدى، وأبو البخترى ابن هشام، وزمعة ابن الأسود.

وكان أول من سعى الى نقضها بصريح الدعوة زهير ابن أمية، أقبل على الناس عند الكعبة فقال يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، ثم قال بقية الخمسة نحواً من هذا الكلام، ثم قام المطعم ابن عدى الى الصحيفة فمزقها، ثم انطلق هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة، الى بنى هاشم وبنى المطلب ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج الى مساكنهم.

العبر والعظات :

هذه القطيعة الظالمة، تصور قمة الشدة التى لقيها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه طيلة ثلاثة أعوام، وقد رأيت المشركين من بنى هاشم وبنى المطلب، شاركوا المسلمين فى تحملها، ولم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وليس لنا من حديث عن هؤلاء المشركين وسبب موقفهم هذا، فقد كان الذى دفعهم إليه حمية القرابة والرحم، وإباء الذل الذى كان يتلبس بهم لو أنهم خلوا بين محمد صلى الله عليه وسلم ومشركى قريش من غير بنى هاشم وبنى المطلب يقتلونه ويفتكون به، بقطع النظر عن العقيدة والدين، فقد آثروا إذاً أن يجمعوا بين رغبتين فى صدورهم :

الأولى : الثبات على الشرك والإستكبار على الحق الذى جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم.

الثانى : الإنصياع للحمية التى تدعوا الى حماية القريب من بطشة الغريب وظلمه، بحق كان أو باطل.

أما المسلمون وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنما صبرهم على ذلك الإنصياع لأمر الله، وإيثار الآخرة على الدنيا، وهو أن الدنيا عندهم فى جنب مرضات الله عز وجل، وهذا ما يهمنا أن نبحث فيه، قد تسمع بعض المبطلين من محترفى الغزو الفكرى

يقولون : إن عصبية بنى هاشم وبنى المطلب كانت تكمن خلف دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وتحوطها بالرعاية والحفظ !... والدليل على ذلك موقفهم السلبى من مشركى قريش فى مقاطعتهم للمسلمين .

وإنها لمغالطة مكشوفة، لا يتماسك عليها حجاب أى منطق ولو كان صوريا، ذلك لأن من الطبيعى جداً أن تقود الحمية الجاهلية بنى المطلب وبنى هاشم الى الذود عن حياة ابم عمهم عندما تتهددها يد غريبة ويدنوا منها بالسوء شخص دخيل.

والحمية الجاهلية إذ تدفع ذوى القربى الى مثل هذا التعصب، لا تنظر الى مبدأ، ولا تتأثر بحق أو بباطل، وإنما هى العصبية ولا شىء غير العصبية، ولذلك أمكن أن يجتمع فى ذوى قرباه صلى الله عليه وسلم صفتان متناقضتان بحسب الظاهر وهما : الإستكبار على دعوته والجحود بها، والإنتصار له ضد سائر المشركين فى قريش.

ومع ذلك فأى فائدة حققوها للنبى صلى الله عليه وسلم من وراء إعتصامهم معه ؟ لقد أوذوا كما أوذى هو وأصحابه، ومضت قريش فى قطيعتها للمسلمين بالضراوة والشراسة اللتين أرادتهما دون أن يخفف بنو هاشم أو بنو المطلب من غلوائهما شيئاً.

والمهم أن تعلم بأن حماية الأقاربلرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن حماية للرسالة التبعث بها وإنما كانت حماية لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين، وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم، فأنعم بذلك من جهد مشكور، وسبيل يتنبهون إليها.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه المؤمنون، فما الذى كان يمسكهم على هذا الضيق الخانق ؟... وأى غاية كانوا يتأملونها من وراء الثبات على الشدة ؟
بماذا يجيب على هذا السؤال أولئك الذين يتأولون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإيمان أصحابه به على أنها ثورة يسار ضد يمين أى ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين ؟

تصور هذه السلسلة التى إستعرضناها، من حلقات الإيذاء والتعذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولإصحابه، ثم أجب على ضوئها : كيف يستقيم أن تكون دعوة الإسلام ثورة إقتصادية ألهبها الجوع وقادها الحقد على تجار مكة وأرباب الفعاليات الإقتصادية فيها ؟

لقد عرض المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم الملك والثراء والزعامة، على أن يتخلى عن الدعوة الى الإسلام، فلماذا لم يرض عليه الصلاة والسلام بذلك، ولماذا لم يثر عليه أصحابه ولم يضغطوا عليه - وإن غايتهم الشبع بعد الجوع - كى يقبل بعرض قريش ؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بشىء أكثر من الحكم يكون فى أيديهم والمال يكون فى جيوبهم ؟

ولقد قوطع محمد صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه المسلمون عن سبيل كل معايشة إقتصادية وإجتماعية مع بنى قومه، فلم تترك سلعة تتسلل الى أيديهم، ولم يترك طعام يدخل الى بيوتهم، حتى راحوا يأكلون أوراق الشجر، وهم على ذلك صابرون، محدقون برسول الله صلى الله عليه وسلم، أفهكذا يصنع من تعتلج وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش ؟ !..

وعندما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة وهاجر إليها من قبله ومن بعده أصحابه، تركوا المال والأرض والممتلكات المختلفة واستقبلوا بوجوههم شطر المدينة المنورة، وقد تجردوا من كل ما يتعلق به الطامعون فى المال، لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلا، ولا يقيمون وزنا لدنيا فاتتهم ولملك أدبر عنهم، أفهذا هو الدليل على أنها ثورة يسارية قامت من أجل لقمة طعام ؟ !..

قد يكون دليل هؤلاء الناس على ما يتصورون ملاحظة الأمرين التاليين :

الأول : أن الجماعة الأولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة كانت أغلبيتهم من الفقراء والموالى والمضطهدين، وهو ما يدل على أنهم ينفّسون بإتباعهم محمد صلى الله عليه وسلم عن شىء من كربهم، وإنهم كانوا يتأملون مستقبلا إقتصادياً أفضل لأنفسهم فى ظل الدين الجديد.

الثانى : أن هؤلاء الأصحاب ما لبثوا بعد حين أن فتحت عليهم آفاق الدنيا، وأقبل إليهم الثراء والمال، وهو دليل على أن خطة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت ترمى الى تحقيق هذه الغاية، وأنت إذا تأملت فى إستدلالاتهم على ما يتصورونه، بهاتين الملاحظتين أدركت كم هو نصيب الخيال من عقولهم ومنهج تفكيرهم.

أما أن الجماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانت على الأغلب من الفقراء والموالى، فنعم، ولكن ليس بين هذه الحقيقة وذلك الوهم أى علاقة أو نسب، إن شريعة تقضى بإرساء العدالة بين الناس، وبالضرب على يد كل ظالم وطاغية متجبر ومستكبر، من المسلم أن يعرض عنها بل أن يحاربها أولئك الذين إستمرؤوا حياة البغى والظلم، لأنها تحملهم المغارم أكثر من أن تقدم إليهم المغانم، كما أن من المسلم به أن يرحب بها كل مستضعف مظلوم، بل كل إنسان ليس له فى تجارة البغى والإستغلال نصيب، لأنها تقدم لهم المغانم أكثر من أن تقدم لهم المغارم، أو لأنهم - على أقل تقدير - ليست لهم مع الناس مشكلات تجعلهم يستثقلون تبعاتها وتكليفاتها.

إن معظم من كان حول رسول الله صلى اله عليه وسلم كان مستيقناً أنه على الحق وأنه نبى مرسل، ولكن أرباب الزعامات وعشاق العظمة والسيطرة، وجدوا من طبيعتهم وظروفهم ما أصبح عائقاً لهم عن الإستسلام لهذا الحق والتفاعل معه، أما الآخرون فلم يجدوا ما يعيقهم عن الإستسلام لشىء ىمنوا به واستيقنوه. فما العلاقة بين هذه الحقيقة التى يفهمها كل باحث، وما يزعمه أولئك الزاعمون ؟

وأما أن خطة الدعوة الإسلامية التى سلكها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تستهدف إمتلاك المسلمين لمنابع الثروة واستيلائهم على عروش الملك واستيلاب السيادة منهم، بدليل أن المسلمين قد وصلوا فعلاً الى ذلك - فإنه والله أشبه بمحاولة الجمع بين المشرق والمغرب !..

إذا كان المسلمون قد تمكنوا من فتح بلاد الروم والفرس، فى حقبة يسيرة من الزمن، بعد أن صدقوا الله فى إسلامهم، أفيكون ذلك دليلاً على أنهم أسلموا طمعاً بعرش الروم والفرس ؟!..

لو أنهم أرادوا من وراء إسلامهم الوصول الى شهوة من شهوات الدنيا أياً كانت، لما تحقق لهم ولا الجزء اليسير من معجزة ذلك الفتح.

لو كان عمر ابن الخطاب وهو يجهز جيش القادسية ويودع سعد ابن أبى وقاص، يستهدف كنوز كسرى، ويسيل لعابه رغبة فى أن ينقلب فى مثل نعيمه ويجلس على مثل عرشه، لما عاد إليه سعد إلا بأثقال من الخيبة والهوان، ولكنهم صدقوا الله فى الجهاد من أجل نصرة دين الله، فصدقهم فيما أكرمهم به من تمليكهم زمام الحكم وإغنائهم بما لم يكونوا يحلمون.

لو كان الحلم الذى يراود المسلمين فى معركة القادسية، وصولاً الى ثروة وتقلباً فى نعيم وتحقيقاً للذائذ العيش إذاً لما دخل ربعى ابن عامر رضى الله عنه سرادق رستم مزدرياً مظاهر الترف التى غمس فيها السرادق غمساً يتوكأ بزج رمحه على البسط والنمارق الفاخرة حتى أفسدها، ولما قال لرستم إن دخلتم الإسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم !... أهكذا يقول من جاء ليستلب الملك والأرض والمال ؟

لقد أكرمهم الله بمقدرات الدنيا كلها، لأنهم لم يكونوا يفكرون فيها، وإنما كان تفكيرهم منصرفاً الى تحقيق مرضاة الله، ولو كانوا يستهدفون من جهادهم هذه المقدرات لما وصلوا الى شىء منها

المسألة بما فيها ليست إلا تحقيقاً للقانون الإلهى الذى يقول :(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) ، وأن تفهم هذا القانون لأيسر ما يكون على العقل أى عقل كان، بشرط واحد أن يكون صاحبه حراً عن العبودية لأى رغبة أو غرض .

أول هجرة فى الإسلام

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء وأنه لا يقدر على أن يحميهم ويمنعهم مما هم فيه، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن ملكها لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون الى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً الى الله بدينهم، فكانت أول هجرة فى الإسلام، وكان فى مقدمة المهاجرين : عثمان ابن عفان وزوجته، رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو حذيفة وزوجته، والزبير ابن العوام، ومصعب ابن عمير وعبد الرحمن ابن عوف.... حتى إجتمع فى أرض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة وثمانون رجلاً.

فلما رأت قريش ذلك، أرسلت الى النجاشى عبد الله ابن ابى ربيعة وعمرو ابن العاص (ولم يكن قد أسلم بعد) بهدايا مختلفة كثيرة، إليه وإلى حاشيته وبطارقته، رجاء أن يرفض قبول هؤلاء المسلمين فى جواره ويسلمهم مرة أخرى الى أعدائهم.

فلما كلما النجاشى فى ذلك - وكانا قد كلما بطارقته من قبله وقدما إليهم ما جاءا به من الهدايا - رفض النجاشى أن يسلم أحد من المسلمين إليهما حتى يكلمهم فى شأن دينهم الجديد هذا، فجىء بهم إليه، ورسولا قريش عنده، فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من الملل ؟.

فكان الذى كلمه جعفر ابن أبى طالب، فقال : أيها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، ونهانا عن الفواحش..... فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان.... فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك.

فسأله النجاشى أن يتلو عليه شىء مما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله، فقرأ عليه جعفر ابن ابى طالب صدراً من سورة مريم، فبكى النجاشى حتى إخضلت لحيته، ثم قال لهم : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. ثم إلتفت الى رسولى قريش قائلا : إنطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون. ثم إنهما عادا فقالا للنجاشى : أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيما، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون. فأرسل إليهم فى ذلك، فقال جعفر ابن ابى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : يقول هو عبد الله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول.

فضرب النجاشى بيده الى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال : والله ماعدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود. ثم رد إليهما هداياهما، وزاد استمساكه بالمسلمين الذين استجاروا به، وعاد الرسل إلى قريش خائبين.

وبعد فترة من الزمن بلغهم إسلام أهل مكة فرجعوا لما بلغهم ذلك حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما قد سمعوه من إسلام أهل مكة باطل، فلم يدخل احد منهم إلا بجوار، أو مستخفياً وكان جميعهم ثلاثة وثلاثين رجلاً، وكان من بين من دخل بجوار عثمان ابن مظعون، دخل بجوار الوليد ابن المغيرة، وأبو سلمة دخل بجوار ابى طالب

العبر والعظات :

نأخذ من حديث هجرة المسلمين الى الحبشة ثلاث دلالات :

الدلالة الأولى - إن الدين والإستمساك به وإقامة دعائمه، أساس ومصدر لكل قوة، وهو السياج لحفظ كل حق من مال وارض وحرية وكرامة، ومن أجل هذا كان واجب الدعاة الى الإسلام والمجاهدين فى سبيله أن يجندوا كل إمكاناتهم لحماية الدين ومبادئه، وأن يجعلوا من الوطن والأرض والمال والحياة وسائل لحفظ العقيدة وترسيخها، حتى إذا إقتضى الأمر بذل ذلك كله فى سبيلها وجب بذله.

ذلك أن الدين إذا فقد أو غلب عليه، لم يغن من ورائه الوطن والمال والأرض، بل سرعان ما يذهب كل ذلك من ورائه، أما إذا قوى شأنه وقامت فى المجتمع دعائمه ورسخت فى الأفئدة عقيدته، فإن كل ما كان قد ذهب فى سبيله من مال وأرض ووطن يعود..... يعود أقوى من ذى قبل حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة...

ولقد جرت سنة الله فى الكون على مر التاريخ أن تكون القوى المعنوية هى الحافظة للمكاسب والقوى المادية، فمهما كانت الأمة غنية فى خلقها وعقيدتها السليمة ومبادئها الإجتماعية الصحيحة، فإن سلطانها المادى يغدو أكثر تماسكاً وأرسخ بقاءاً وأمنع جانباص، ومهما كانت فقيرة فى خلقها، مضطربة فى عقيدتها تائهة أو جانحة فى نظمها ومبادئها فإن سلطانها المادى يغدو أقرب الى الإضمحلال ومكتسباتها المادية أسرع الى الزوال.

وقد تصادف أن تجد أمة تائهة فى عقيدتها عن جادة الصواب منحطة فى مستواها الخلقي والاجتماعي، وهى مع ذلك واقفة على قدميها من حيث القوة والسلطان المادي، ولكنها في الحقيقة والواقع تمر بسرعة نحو هاوية سحيقة. والسبب في أنك لا تحس بحركة هذا المرور وسرعته هو قصر عمر الإنسان أمام طول عمر التاريخ والأحقاب. ومثل هذه الحركة إنما تبصرها عين التاريخ الساهرة لا عين الإنسان الغافل الساهى. وقد تصادف أن تجد أمة تعرّت عن كل مقوماتها المادية من ثروة ووطن ومال فى سبيل الحفاظ على العقيدة الصحيحة وفى سبيل بناء النظام الإجتماعى السليم، ولكن ما هى إلا فترة قصيرة حتى تجد أرباب هذه العقيدة الصحيحة وما يتبعها من الخلق والنظام الإجتماعى السليم قد إستحوذ على وطنهم المسلوب ومالهم المغصوب وعادت إليهم قوتهم مضاعفة معززة.

وأنت لن تجد الصورة الصحيحة عن الكون والإنسان والحياة إلا فى عقيدة الإسلام الذى هو دين الله عز وجل لعباده فى الأرض ولن تجد من النظام الإجتماعى العادل السليم إلا فى نظام الإسلام وهديه. ولذا فقد كان من أسس الدعوة الإسلامية التضحية بالمال والوطن والحياة فى سبيله، فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال والوطن والحياة.

ومن أجل هذا شرع مبدأ الهجرة فى الإسلام، فأشار الرسول صلى الله عليه وسلم على أصحابه - بعد أن نالهم من أذى المشركين ما خشى عليهم معه فتنتهم فى الدين - الى الهجرة والخروج من الوطن.

وانت خبير أن هذه الهجرة نفسها ضرب غير يسير من ضروب العذاب والألم فى سبيل الدين، فهى ليست فى الحقيقة هرباً من الأذى والراحة، بل هى تبديل للمحنة ريثما يأتى الفرج والنصر.

وأنت خبير أيضاً أن مكة لم تكن إذ ذاك دار إسلام حتى قال : فكيف ترك أولئك الصحابة دار الإسلام وفروا إبتغاء سلامة أرواحهم الى بلاد كافرة، فمكة والحبشة وغيرها كانت سواء إذ ذاك، وأيها كان أعون للصحابى على ممارسة دينه والدعوة إليه، فهى أجدر بالإقامة فيها.

أما الهجرة من دار الإسلام فحكمها بين الوجوب والجواز والحرمة، أما الوجوب فيكون عند عدم تمكن المسلم من القيام بشعائر الإسلام فيها كالصلاة والصيام والآذان والحج...

وأما الجواز فيكون عندما يصيبه فيها بلاء يضيق به، فيجوز له أن يخرج منها الى دار إسلامية أخرى.

وأما الحرمة فتكون عندما تستلزم هجرته إهمال واجب من الواجبات الإسلامية لا يقوم به غيره.

الدلالة الثانية - ونأخذ منها حقيقة العلاقة القائمة بين ما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى عليه السلام، فقد كان النجاشى على دين عيسى عليه الصلاة والسلام وكان مخلصاً وصادقاً فى نصرانيته، ولقد كان مقتضى إخلاصه هذا أن لا يتحول عنها الى ما يخالفها وأن لا ينتصر لمن تختلف عقيدتهم عما جاء به الإنجيل وما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام.

أى فلو صحت تقولات أولئك الذين يزعمون إنتماءهم الى عيسى ابن مريم وتمسكهم بالإنجيل، من أن عيسى ابن الله تعالى وثالث ثلاثة، لتمسك النجاشى (الذى كان من أخلص الناس لنصرانيته) بذلك ولرد على المسلمين كلامهم وانتصر لرسل قريش فيما جاءوا من أجله.

ولكنا رأينا النجاشى يعلق على ما سمعه من القرآن وترجمته لحياة عيسى ابن مريم بقوله : إن هذا والذى جاب به عيسى ابن مريم ليخرج من مشكاة واحدة. يقول ذلك على مسمع من بطارقته وعلماء الكتاب الذين من حوله، وهذا يؤكد ما هو بديهى الثبوت من أن الأنبياء كلهم إنما جاؤوا بعقيدة واحدة لم يختلفوا حولها عن بعضهم قيد شعرة، ويؤكد لنا أن إختلاف أهل الكتاب فيما بينهم ليس إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً من عند أنفسهم كما قال الله تعالى.

الدلالة الثالثة - أنه يجوز للمسلمين أن يدخلوا فى حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة الى ذلك، سواء كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشى إذ كان نصرانياً، ولكنه أسلم بعد ذلك، أو كان مشركاً كأولئك الذين عادوا الى مكة فى حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة وكأبي طالب عم الرسول، وكالمطعم ابن عدى الذى دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة فى حمايته عندما رجع من الطائف

وهذا مشروط - بحكم البداهة - بأن لا يستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدعوة الإسلامية، أو تغييراً لبعض أحكام الإسلام، أو سكوتاً على إقتراف بعض المحرمات، وإلا لم يجز على المسلم الدخول فيها.

ودليل ذلك ما كان من موقفه صلى الله عليه وسلم حينما طلب منه أبو طالب أن يبقى على نفسه ولا يحمّله ما لا يطيق فلا يتحدث عن آلهتهم بسوء، فقد وطن نفسه إذ ذاك للخروج من حماية عمه وأبى أن يسكت عن شىء مما يجب عليه بيانه وإيضاحه.

أول وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى غمرة ما كان يلاقيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه من العذاب والإيذاء وفد الى برسول الله صلى الله عليه وسلم أول وفد من خارج مكة لفهم شىء عن الإسلام. وكانوا بضعة وثلاثين رجل من نصارى الحبشة جاؤوا مع جعفر ابن ابى طالب لدى عودته الى مكة. فلما جلسوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واطّلعوا على صفاته واحواله وسمعوا ما تلى عليهم من القرآن، آمنوا كلهم، فلما علم بذلك أبو جهل أقبل إليهم قائلا : ما رأينا ركباً أحمق منكم !... أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال. فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نسأل أنفسنا خيراً.

فنزل فيهم قول الله عزو جل : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به، إنه الحق من ربنا إنّا كنّا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنةالسيئة ومما رزقناهم ينفقون، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين).

العبر والعظات :

ينبغى أن يسترعى إنتباهنا من خبر هذا الفد أمران إثنان :

أولاً : فى قدوم هذا الوفد الى مكة ولقاء الرسول صلى الله عليه وسلم والتعرف على الإسلام فى غمرة ما كان المسلمون يعانونه من العذاب وإيذاء ومقاطعة وتضييق، دلالة باهرة على أن ما قد يلاقيه أرباب الدعوة الإسلامية فى طريقهم من الآلام والمصائب لا يعنى بحال من الأحوال الفشل، ولا يستلزم الضعف أو التخاذل أو اليأس. بل العذاب كما قلنا طريق لابد من سلوكها للوصول الى النجاح والنصر. لقد جاء هذا الوفد وكانوا يزيدون على ثلاثين رجلاً من النصارى وقيل بل كانوا يزيدون على أربعين رجلاً، جاؤوا يمخرون عباب البحر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليعلنوا الولاء للدعوة الجديدة، وليعلنوا بلسان الحال أن أعداء الدعوة الإسلامية لن يستطيعوا (مهما ضيقوا عليها ومهما عذبوا وآذوا أربابها ومهما قاطعوهم وائتمروا عليهم) أن يمنعوها من أن تؤتى ثمارها أو أن يحبسوها عن الإنتشار فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكأنما قد علم أبو جهل بهذه الحقيقة فتجلت آثارها على نفسه ولسانه فى الكلمات الحاقدة التى واجه بها أفراد ذلك الوفد، ولكن ما عساه أن يصنع ؟ إن كل ما يستطيع هو وأمثاله أن يصنعوه، إنزال مزيد من العذاب والإيذاء بالمسلمين، أما أن لا تبلغ الدعوة مداها وأن لا تؤتى ثمارها، فليس له الى ذلك من سبيل.

ثانيا : ما هى نوعية الإيمان الذى آمنه أفراد هذا الوفد ؟ هل هو إيمان من يخرج من ظلمات الكفر الى النور؟ الواقع أن غيمانهم كان مجرد إستمرار لإيمانهم السابق، ومجرد سلوك بمقتضى ما كانوا يؤمنون به من عقيدة ودين. فقد كانوا على حد تعبير رواة السيرة أهل إنجيل يؤمنون به، ويسيرون على هديه. ولما كان الإنجيل يأمر بإتباع الرسول الذى يأتى من بعد عيسى عليه السلام ويتحدث عن صفاته ومميزاته، فقد كان من مقتضى إستمرار الإيمان، الإيمان بهذا النبى محمد صلى الله عليه وسلم. وإذاً فإن إيمانهم به عليه الصلاة والسلام لم يكن عملية إنتقال من دين الى دين بسبب تفضيل أحدهما على الآخر، وإنما كان إستمراراً لحقيقة الإيمان بعيسى عليه السلام وما أنزل إليه، وهذا هو معنى قولهم فى الآية الشريفة: (وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) أى إنا كنا مسلمين ومؤمنين بهذا الذى يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم، من قبل بعثته، لأنه مما يدعو إليه الإنجيل للإيمان به.

وهذا هو شأن كل من تمسك تمسكاً حقيقياً بما جاء به عيسى عليه السلام أو بما جاء به موسى عليه السلام إذ الإيمان بالتوراة والإنجيل يستدعى الإيمان بالقرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم. ولذلك امر الله رسوله أن يكتفى من دعوة أهل الكتاب الى الإسلام بمجرد مطالبتهم بتطبيق ما فى التوراة والإنجيل الذى يدّعون الإيمان به فقال جل جلاله :(قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل).

وهذا يقتضى تأكيد ما بيّناه من أن الدين الحق واحد لم يتعدد، منذ خلق الله آدم عليه السلام الى بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن كلمة (الأديان السماوية) التى يستعملها بعض الناس كلمة لا معنى لها. نعم، هناك شرائع سماوية متعددة وكل شريعة سماوية ناسخة لما قبلها من الشرائع، ولكن ينبغى أن لا نخلط بين (الدين) الذى يطلق أو ما يطلق على العقيدة،و (الشريعة) التى تطلق على الأحكام السلوكية المتعلقة بالعبادات والمعاملات.

عام الحزن

وهو العام العاشر من بعثته صلى الله عليه وسلم، فقد توفيت زوجته خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، وتوفى عمه أبو طالب، ويقول ابن سعد فى طبقاته : كان بين وفاة خديجة وأبى طالب شهر وخمسة أيام. وقد كانت خديجة رضى الله عنها، كما قال ابن هشام، وزير صدق على افسلام يشكو الرسول إليها ويجد عندها أنسه وسلواه، أما أبو طالب فقد كان عضداً وحرزاً فى أمره، وكان ناصراً له على قومه. يقول ابن هشام : فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن

تطمع به فى حياة أبى طالب، حتى إعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه، فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك.

ولقد أطلق النبى صلى الله عليه وسلم على هذا العام عام الحزن لشدة ما كابد فيه من الشدائد فى سبيل الدعوة.

العبر والعظات :

ترى ما الحكمة فى أن يتعجل قضاء الله تعالى فى إستلاب أبى طالب من الحياة قبل أن يشتد ساعد المسلمين فى مكة ويتكون لهم شىء من المنعة ؟ ومعلوم أنه قد كان يحمى الرسول- قدر الإمكان - من كثير من المصائب والشدائد، وما الحكمة فى أن يتعجل القضاء باستلاب زوجته خديجة رضى الله عنها، وقد كان يجد عندها أنسه وسلواه، وينفض بمساعدتها عن كاهله كثيراً من أحاسيس الشدائد والآلام ؟

تبرز هنا ظاهرة هامة تتعلق بأسس العقيدة الإسلامية. فلو أن أبا طالب بقى الى جانب ابن أخيه يكلؤه ويحميه إلى أن تقوم الدولة الإسلامية فى المدينة وريثما ينجو الرسول من أذى المشركين وقبضتهم، لكان فى ذلك ما قد يوهم أن أبا طالب كان من وراء هذه الدعوة، وأنه هو الذى كان يدفعها الى الأمام ويحميها بمكانته وسلطانه بين قومه، وإن لم يظهر الإيمان بها والإنضواء تحتها، ولجاء من يطيل ويطنب فى بيان الحظ الحسن الذى تهيأ للرسول صلى الله عليه وسلم أثناء قيامه بالدعوة، بسبب حماية عمه له، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله، فأوذوا وهو محفوظ الجانب، وتعذبوا وهو مستريح البال.

لقد قضت حكمة الله تعالى أن يفقد الرسول عمه ابا طالب وزوجته خديجة بنت خويلد، ويفقد من حوله من كان فى الظاهر حامياً له ومؤنساً، حتى تتجلى حقيقتان هامتان :

أولاهما - أن الحماية والعناية والنصر، إنما يأتى كل ذلك من الله عز وجل. ولقد تعهد الله أن يعصم رسوله من المشركين والأعداء، فسواء كان ثمّة من يحميه من الناس أو لم يكن، فهو معصوم من الناس وستبلغ دعوته منتهاها من النصر والتوفيق.

ثانيا - ليس معنى العصمة من الناس أن لا يرى منهم إيذاء أو عذاب او إضطهاد، وإنما معنى العصمة التى تعهد الله بها رسوله فى قوله :(والله يعصمك من الناس) أى العصمة من القتل ومن اى صد أو عدوان من شأنه إيقاف الدعوة الإسلامية، فقد قضت حكمة الله تعالى أن يذوق الأنبياء من ذلك قدراً غير يسير، وذلك لا ينافى العصمة التى وعد الله بها أنبياءه ورسله، ولذلك يقول الله تعالى :(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنّا كفيناك المستهزئين) ويقول له :(ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين).

ومن الحكم الجليلة لما قضت به سنة الله عز وجل من ا، يلاقى الرسول ما لاقى من المحنة على طريق الدعوة، أن يستسهلها ويستخف بها المسلمين فى كل عصر ممن أنيطت بهم مسئولية الدعوة الإسلامية، فلو أن النبى صلى الله عليه وسلم نجح فى دعوته بدون أى مشقة أو جهد، لطمع أصحابه والمسلمون من بعده بأن يستريحوا كما إستراح، ولاستثقلوا المصائب والمحن التى قد يواجهونها فى طريقهم الى الدعوة الإسلامية.

أما والحالة هذه، فإن مما يخفف وقع المحنة والعذاب على المسلمين شعورهم أنهم يذوقون مما ذاقه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم يسيرون فى نفس الطريق التى أوذى فيها رسول الله. وهما أصابهم من ألم السخرية بهم او إهانة الناس لهم، فإن ذلك لا يفتّ فى عضدهم بعد أن رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألقى التراب فى السوق على رأسهحتى إضطر أ، ينقلب الى بيته لتقوم إحدى بناته فتغسل عن رأسه الشريفة التراب، مع أنه حبيب الله وصفوته من خلقه. وسنجد فى هجرته صلى الله عليه وسلم

الى الطائف وما لاقاه إذ ذاك ما يجعل المسلمين يستسهلون كل محنة وعذاب فى سبيل أن يضربوا مع رسولهم بنصيب مما قاساه وعاناه فى سبيل الدعوة الإسلامية ، هذا شىء

والشىء الآخر الذى يتعلق بهذا المقطع من سيرته عليه الصلاة والسلام هو أن بعض الناس يحسبون أن سبب تسمية الرسول لهذا العام عام الحزن إنما هو مجرد فقده عمه وزوجته، وربما إستساغوا إقامة علائم الحزن والحداد على موتاهم مدة طويلة من الزمن مستدلين بهذا، والواقع أن هذا خطأ فى الفهم والتقدير، فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يحزن على فراق عمه وفراق زوجه ذلك الحزن الشديد، ولم يطلق على تلك السنة : عام الحزن، لمجرد أنه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقدهم. بل سبب ذلك ما أعقب وفاتهما من إنغلاق معظم أبواب الدعوة الإسلامية فى وجهه، فقد كانت حماية عمه له تترك مجالات للدعوة كثيرة وسبلا مختلفة للتوجيه والإرشاد والتعليم.... وكان يرى فى ذلك بعض النجاح فى العمل الذى أمره به ربه. أما بعد وفاته، فقد سدت فى وجهه تلك المجالات، فمهما حاول وجد صداً وعدواناً، وحيثما ذهب وجد السبل مغلقة فى وجهه. فيعود بدعوته كما ذهب بها : لم يسمعها أحد ولم يؤمن بها أحد، بل الكل ما بين مستهزىء ومعتد، ومتهكم به، فيحزنه أن يعود وهو لم يأت من الوظيفة التى كلفه الله بها بنتيجة، فمن أجل ذلك سمى العام عام الحزن.

بل لقد كان حزنه على أن لا يؤمن الناس بالحق الذى جاء به، شيئاً غالباً على نفسه، فى أكثر الأحيان، ومن أجل تخفيف هذا الحزن كانت تنزل الآيات مواسية له ومسلية، ومذكرة إياه بأنه ليس مكلفاً بأكثر من التبليغ، فلا داعى الى أن يذهب نفسه عليهم حسرات إذا لم يستجيبوا ولم يؤمنوا، إستمع مثلاً الى هذه الآيات : (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون، فإنهم لا يكذبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن إستطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين).

معجزة الإسراء والمعراج

ويقصد بالإسراء الحالة التى أكرم الله بها نبيه من المسجد الحرام بمكة الى المسجد الأقصى بالقدس، أما المعراج فهو ما أعقب ذلك من العروج به الى طبقات السماوات العلا ثم الووصل به الى حد إنقطعت عنده عموم الخلائق من ملائكة وإنس وجن، كل ذلك فى ليلة واحدة.

وقد إختلف فى ضبط تاريخ هذه المعجزة هل كانت فى العام العاشر من بعثته صلى الله عليه وسلم أم بعد ذلك . والذى رواه ابن سعد فى طبقاته الكبرى أنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً.

وجمهور المسلمين على أن هذه الرحلة كانت بالجسم والروح معاً، ولذلك فهى من معجزاته الباهرة التى أكرمه الله بها، أما قصة ذلك فقد رواها البخارى ومسلم بطولها :

وفيها أنه صلى اله عليه وسلم أتى بالبراق، وهو دابة فوق حمار ودون بغل يضع حافره عند منتهى طرفه...... وفيها أنه صلىالله عليه وسلم دخل المسجد الأقصى فصلى فيه ركعتين، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاختار عليه الصلاة والسلام اللبن، فقال جبريل : إخترت الفطرة.... وفيها أنه عرج به صلى الله عليه وسلم الى السماء الأولى فالثانية فالثالثة............ وهكذا حتى ذهب به الى سدرة المنتهى وأوحى الله إليه عندئذ ما أوحى.... وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين وهى فى أصلها خمسون صلاة فى اليوم والليلة.

ولما كانت صبيحة اليوم التالى وحدث الرسول صلى اله عليه وسلم الناس بما شاهد، طفق المشركون يجمع بعضهم بعضاً ليتناقلوا هذا الخبر الطريف ويضحكوا منه. وتحداه بعضهم أن يصف لهن بيت المقدس ما دام أنه قد ذهب إليه وصلى فيه، والرسول صلى

الله عليه وسلم حينما زاره لم يخطر فى باله أن يجيل النظر فى أطرافه ويحفظ أشكاله وعدد سواريه، فجلى له الله عز وجل صورته بين عينيه وأخذ يصفه لهم وصفاً تفصيلياً كما يسألون. روى البخارى ومسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :(لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر، فجلى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه). أما أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقد حدثه بعض المشركين عما يقوله الرسول، رجاء ان يستعظمه فلا يصدقه، فقال : إن كان قال ذلك فقد صدق، إنى لأصدقه على أبعد من ذلك.

وفى صبيحة ليلة الإسراء والمعراج جاء جبريل وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم كيفية الصلاة وأوقاتها، وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلى ركعتين صباحاً ومثليهما مساءاً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام.

العبر والدلالات :

أولا : كلمة عن الرسول والمعجزات :

يولع بعض الباحثين بالمبالغة فى تصوير حياة الرسول صلى الله عليه وسلم على أنها حياة بشرية عادية، وذلك من خلال الإطناب فى بيان أن حياته صلى الله عليه وسلم، لم تكن معقدة وراء الخوارق والمعجزات، بل كان منكراً لها غير عابىء بها ولا ملتفت الى المطالبين بها، وأنه كان يؤكد دائماً أن المعجزات والخوارق ليست من شأنه وليس له إليها سبيل، ويكثرون فى هذا من الإستشهاد بمثل قوله تعالى :(قل إنما الآيات عند الله) بحيث يخيل الى القارىء أو السامع أن سيرته صلى الله عليه وسلم كانت بعيدة كل البعد عن المعحزات والآيات التى يؤيد الله بها فى العادة أنبياءه الصادقين. وإذا أمعنا فى منبع هذه النظرية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، نجد أنها فى الأصل فكرة بعض المستشرقين والباحثين الأجانب من أمثال غوستاف لوبون، وأوجست كونت، وهيوم، وجولد زيهر، وغيرهم، وأساس هذه النظرية عندهم وسببها هو عدم الإيمان بخالق المعجزات أولاً. ذلك لأن الإيمان بالله عز وجل إذا استقر فى النفس، سهل الإيمان بكل شىء بعد ذلك ولم يبق شىء فى الدنيا يستحق أن يسمى فى الحقيقة معجزة.

ثم تلقف هذه النظرية منهم، أناس من المسلمين، كان من سوء حظ العالم الإسلامى أن جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الأجانب دون أى سبب سوى الإفتتان بزخرف خداعهم وانخطاف أبصارهم بمظهر النهضة العلمية التى هبت فى أنحاء أوروبا، وكان من هؤلاء المسلمين الشيخ محمد عبده، ومحمد فريد وجدى، وحسين هيكل.

ثم نظر محترفوا التشكيك وأرباب الغزو الفكرى، فوجدوا فى هذا الذى يقوله بعض من المسلمين أنفسهم ما يفتح لهم آفاقاً وميادين جديدة لغزوهم الفكرى وتشكيك المسلمين بدينهم، يغنيهم عن وسيلتهم العتيقة... وسيلة الحرب المباشرة للعقيدة الإسلامية وغرس الأفكار الإلحادية فى الرؤوس. فراحوا يروجون صفات معينة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كالبطولة والعبقرية والقيادة فى عبارات من الإعجاب والإطراء، ويبالغون فى نفس الوقت فى تصوير حياته العامة بعيدة عن كل ما لا يدركه العقل من المعجزات وخوارق العادات، كى يتم لهم إنشاء صورة جديدة للنبى صلى الله عليه وسلم فى أذهان المسلمين مع مرور الزمن، قد تكون صورة (محمد العبقرى) أو تكون صورة (محمد القائد) أو تكون صورة (محمد البطل) ولكنها لا ينبغى على أى حال من الإحوال أن تكون صورة (محمد النبى الرسول) إذ تكون جميع حقائق النبوة بما يحف بها ويستلزمها من وحى...... وغيبيات وخوارق، قد قذف بها - بعامل هذا الترويج لألقاب العبقرية والبطولة البعيدين عن المعجزات والخوارق - الى عالم ما يسمونه: الميتيولوجيا (الأساطير) ذلك لأن ظاهرة الوحى والنبوة تعتبران فى رأس المعجزات. وحينئذ لا ينبغى أن يتصور - بطبيعة الحال - أى سبب لتكاثر مختلف الناس والأمم من حول الرسول وانضوائهم تحت لوائه وانسياقهم فى دعوته، إلا التأثر بالعبقرية ومقومات القيادة فى حياته... وانظر ! فإن هذا القصد الذى يهدفون إليه يتجلى واضحاً فى إشاعة كلمة (محمديين) كتسمية جديدة بدلا عن: مسلمين.

ولكن ما هو موقه هذا التخيل والتصور من حقيقة أمر محمد صلى الله عليه وسلم وشأنه، إذا ما حاولنا إستجلاء الحقيقة على ضوء البحث المنطقى والموضوعى؟

أولا :- إذا عدنا الى التأمل فى ظاهرة الوحى التى تجلت واضحة فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام (وقد مر البحث فيها بتفصيل واف) رأينا أبرز صفة فى حياته عليه الصلاة والسلام هى (النبوة) لا شك فى ذلك ولا ريب، والنبوة هى من المعانى الغيبية التى لا تخضع لمقاييسنا المحسوسة وإذاً فإن معنى المعجزة الخارقة قائم فى أصل كيانه عليه الصلاة والسلام فلا يتسنى نفى المعجزات والخوارق عنه صلى الله عليه وسلم إلا بهدم معنى النبوة نفسها ونسخها من حياته، وذلك يساوى بالبداهة إنكار الدين نفسه، ولئن لم يصرح بهذه النتيجة بعض الباحثين المستشرقين، مكتفين ببيان ذكاء الرسول ومدى عبقريته وشجاعته وسياسته للأمور، فذلك إكتفاء منهم برسم المقدمات عن بيان النتائج إذ النتيجة تأتى بطبيعتها بعد التسليم بمقدماتها.

[1] حينما سمى الإيمان بالدين إيماناً بالمعجزة على أن كثيرين صرحوا بالنتيجة، بعد أن ضاقت بها صدورهم، مثل شبلى شميل المستحيلة!

وأنت خبير أنه لا معنى للبحث فى إنكار جزئيات المعجزات أو إثباتها، إذا كان أصل الدين محل شك أو إنكار.

ثانياً :- إذا تأملنا فى سيرته صلى الله عليه وسلم ووقائع حياته، وجدنا أن الله سبحانه وتعالى أجرى معجزات كثيرة على يديه، لا مناص من قبولها، ولا مجال لردها، لأنها نقلت إلينا بالأسانيد الصحيحة المتواترة التى ترتقى بالفكر والعقل الى درجة اليقين والقطع.

[2] من بين أصابعه الشريفة، أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء، ومسلم فى كتاب الفضائل، ومالك فى الموطأ فى فمن ذلك حديث نبع الماء كتاب الطهارة، وغيرهم من أئمة الحديث بطرق مختلفة كثيرة، حتى نقل الزقانى عن القرطبى قوله : إن نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم تكرر عدة مواطن فى مشاهد عظيمة، وورد من طرق كثيرة يفيد مجموعها القطعى المستفاد من التواتر المعنوى.

ومن ذلك حديث إنشقاق القمر على عهده صلى الله عليه وسلم حينما سأله المشركون ذلك، فقد أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء، وأخرجه مسلم فى كتاب صفة القيامة، وأخرجه غيرهما من عامة علماء الحديث، وقال ابن كثير: (قد وردت بذلك الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة) وهذا أمر متفق عليه بين العلماء: أنه وقع على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وإنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ومن ذلك حديث الإسراء والمعراج الذى نسوق هذا البحث بمناسبته وهو حديث متفق عليه لا تنكر قطعية ثبوته، وهو بإجماع جماهير المسلمين من أبرز معجزاته.

شبلي شميّل، (1850-1917) مسيحي لبناني من طلائع النهضة العربية. تخرج من الكلية البروتستنتية / الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم توجّه إلى باريس لدراسة الطب، ثم استقر في مصر، أقام في الاسكندرية، طنطا، ثم القاهرة. أصدر مجلة (الشفاء) سنة 1886م، وكان أول من أدخل نظريات داروين إلى العالم العربي من خلال كتاباته في المقتطف، ثم مؤلفه (فلسفة النشوء والارتقاء). كما أصدر هو و سلامة موسى صحيفة أسبوعية اسمها المستقبل سنة 1914 لكنها أغلقت بعد ستة عشر عددا. كان من العلامات الأخلاقية المعروفة. نافح عن العلمانية كنظام سياسي، اذ كان يرى بأن الوحدة الاجتماعية، ضرورة أساسية لتحقيق إرادة شعبية عامة، تستلزم الفصل بين الدين والحياة السياسية على اعتبار أن الدين كان عامل فرقة (وكبيديا)

فمن ذلك ما حدث يوم الحديبية، فيما رواه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة- إناء من جلد-، فتوضأ، فجهش-أسرع- الناس نحوه، فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا، وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

ومن ذلك ما حصل بالزوراء - وهو مكان قرب السوق في المدينة - مما نقله الصحابي الجليل أنس رضي الله عنه، قال: (أُتي النبي صلى الله عليه وسلم بإناءٍ وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم، قال قتادة : قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة، أو زهاء ثلاثمائة) متفق عليه، واللفظ للبخاري .

ومن ذلك أيضاً ما حدث عندما قلّ الماء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على سفر، يحدثنا عن ذلك الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ، فقل الماء، فقال: اطلبوا فضلة من ماء، فجاءوا بإناءٍ فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: حي على الطهور المبارك، والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل) رواه مسلم .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين لا يفتأون يروجون صفة العبقرية، والعبقرية وحدها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويبعدون اسم المعجزات والخوارق عن حياته يتجاهلون هذه الأحاديث المتواترة التى بلغت من الصحة درجة القطع، فلا يتحدثون عنها سلباً ولا إيجاباً كأن كتب الحديث غير ممتلئة بها، يعدّ لكل منها ما قد يزيد على عشرة طرق.

ومن الواضح أن سبب هذا التجاهل هو التهرب من الإشكال العويص الذى سيواجهونه لدى النظر فى هذه الأحاديث، إذ هى تناقض فى خط صريح واضح النظرية التى تطوف برؤسهم.

ثالثاً - المعجزة، كلمة لا يوجد لها معنى ذاتى عند التامل والتدبر، وما يراد بها إنما هو معنى نسبى مجرد، فالمعجزة فيما تواضع عليه إصطلاح الناس كل أمر خارج على المألوف والعادة، وكل من المألوف يتطور بتطور الأزمنة والعصور، ويختلف باختلاف الثقافات والمدارك والعلوم. فرب أمر كان قبل فترة من الزمن معجزة فانقلب اليوم الى شىء معروف ومألوف، ورب أمر مألوف فى بيئة متمدنة مثقفة، ينقلب معجزة بين أناس بدائيين غير مثقفين.

بل الحق الذى يفهمه كل عاقل، أن المألوف وغير المألوف معجزة فى أصله. فالكواكب معجزة، وحركة الأفلاك معجزة، وقانون الجاذبية معجزة، والمجموعة العصبية فى الإنسان معجزة والدورة الدموية فيه معجزة، والروح التى فيه معجزة، والإنسان نفسه معجزة، وكم كان دقيقاً ذاك العالم الفرنسى (شاتوبريان) الذى أطلق على الإنسان اسم (الحيوان الميتافيزيقى) أى الحيوان الغيبى المجهول.

غير أن الإنسان ينسى - من طول الإلف واستمرار العادة - وجه المعجزة وقيمتها فى هذا كله، فيحسب جهلاً منه وغروراً أن المعجزة هى تلك التى تفاجىء ما ألفه واعتاده فقط !... ثم يمضى يتخذ مما ألفه واعتاده مقياساً لإيمانه بالأشياء أو كفره بها ! وهذا جهل عجيب من الإنسان مهما ترقى فى مدارج المدنية والعلم.

وتأمل يسير من الإنسان، يوضح له بجلاء أن الإله الذى خلق معجزة هذا الكون كله، ليس عسير عليه أن يزيد فيه معجزة أخرى أو أن يبدل ويغير فى بعض أنظمته التى أنشأ العالم عليها ولقد تأمل مثل هذا التأمل المستشرق الإنكليزى (وليم جونز) حينما قال : (القدرة التى خلقت العالم، لا تعجز عن حذف شىء منه أو إضافة شىء إليه، ومن السهل أن يقال عنه أنه غير متصور عند العقل، لكن الذى يقول عنه غير متصور، ليس غير متصور الى درجة وجود العالم !)

يقصد أنه لم يكن هذا العالم موجوداً، وقيل لواحد ممن ينكر المعجزات والخوارق ولا يتصور وجودها : سيوجد عالم كذا، فإنه سيجيب رأساً إن هذا غير متصور، ويأتى نفيه لتصور ذلك أشد بكثير من نفيه لتصور معجزة من المعجزات. فهذا ما ينبغى أن يفهمه كل مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم وما أكرمه الله به من المعجزات.

ثانياً :- موقع معجزة الإسراء والمعراج من الأحداث التى كانت تمر برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الحين.

لقد عانى رسول الله صلى اله عليه وسلم ألواناً كثيرة من المحن لاقاها من قريش، وكان آخر ما عاناه لدى هجرته الى الطائف مما مر ذكره وبيانه. ولقد ظهر فى دعائه الذى ناجى به ربه بعد أن جلس يستريح فى بستان ابنى ربيعة ما يتعرض له كل بشر من الشعور بالضعف والحاجة الى النصير وذلك هو مظهر عبودية الإنسان لله تعالى وظهر فى إلتجائه ذلك شىء من معنى الشكاة إليه سبحانه وتعالى والطمع منه فى عافيته ومعونته، ولعله خشى أن يكون الذى يلاقيه إنما هو بسبب غضب من اله عليه لأمر ما.... ولذلك كان من جملة دعائه قوله :(إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى).

فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج من بعد ذلك تكريماً من الله تعالى له، وتجديداً لعزيمته وثباته، ثم جاءت دليلاً على أن هذا الذى يلاقيه عليه الصلاة والسلام من قومه ليس بسبب أن الله قد تخلى عنه، أو أنه قد غضب منه، وإنما هى سنة الله مع محبيه ومحبوبيه، وهى سنة الدعوة الإسلامية فى كل عصر وزمن.

ثالثاً :- المعنى الموجود فى الإسراء به صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس:

إن فى الإقتران الزمنى بين إسرائه عليه الصلاة والسلام الى بيت المقدس والعروج به الى السماوات السبع، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى وفيه دلالة واضحة أيضاً على العلاقة الوثيقة بين ما بعث الله به كل من عيسى بن مريم ومحمد بن عبد الله عليهما الصلاة والسلام، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذى إبتعثهم الله عز وجل به.

وفيه دلالة على مدى ما ينبغى أن يوجد لدى المسلمين فى كل عصر ووقت، من الحفاظ على هذه الأرض المقدسة، وحمايتها من مطامع الدخلاء وأعداء الدين، وكأن الحكمة الإلهية تهيب بمسلمى هذا العصر أن لا يهنوا ولا يجبنوا ولا يتخاذلوا أمام عدوان اليهود على هذه الأرض المقدسة، وأن يطهروها من رجسهم، ويعيدوها الى أصحابها المؤمنين.

ومن يدرى؟ لفعل واقع هذا الإسراء العظيم هو الذى جعل صلاح الدين الأيوبى رحمه الله يستبسل ذلك الإستبسال العظيم ويفرغ كل جهده فى سبيل صد الهجمات الصليبية عن هذه البقعة المقدسة حتى ردهم على أعقابهم خائبين.

رابعاً :- وفى إختيار النبى صلى الله عليه وسلم اللبن على الخمر حينما قدمهما له جبريل عليه السلام دلالة رمزية على أن الإسلام هو دين الفطرة، أى الدين الذى ينسجم فى عقيدته وأحكامه كلها مع ما تقتضيه نوازع الفطرة الإنسانية الأصيلة، فليس فى الإسلام شىء يتعارض والطبيعة الأصيلة فى الإنسان ولو أن الفطرة كانت جسماً ذا طول وأبعاد، لكان الدين الإسلامى الثوب المفصل على قدره.

وهذا من أهم أسرار سرعة تقبل الناس له وسعة إنتشاره، إذ الإنسان مهما ترقى فى مدارج الحضارة وغمرته السعادة المادية، فإنه يظل نزاعاً الى إستجابة نوازع الفطرة لديه، ميالاً الى الإنعتاق عن ربقة التكلفات والتعقيدات البعيدة عن طبيعته، والإسلام هو النظام الوحيد الذى يستجيب لأعمق نوازع الفطرة البشرية.

خامساً :- كان الإسراء والمعراج بكل من الروح والجسد معاً، على ذلك إتفق جمهور المسلمين من المتقدمين والمتأخرين، قال النووى فى شرح مسلم ما نصه :(والحق الذى عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا إستحالة فى حملها عليه فيحتار الى تأويل)

ويقول ابن حجر فى شرحه على البخارى : (إن الإسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة بجسده وروحه، وإلى هذا ذهب جمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الخبار الصحيحة ولا ينبغى العدول عن ذلك إذ ليس فى العقل ما يحيله حتى يحتاج الى تأويل).

ومن الأدلة التى لا تقبل الإحتمال على أن افسراء والمعراج كانا بالجسد والروح معاً، ما ذكرناه من إستعظام مشركى قريش لذلك، وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له. إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا وكان إخباره إياهم على هذا الوجه، لما استدعى الأمر منهم أى تعجب أو إستعظام أو إستنكار، لأن المرئيات فى النوم لا حدود لها، بل ويجوز ويجوز مثل هذه الرؤيا على المسلم والكافر، ولو كان الأمر كذلك ما سألوه أيضاً عن صفات بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الإلزام والتحدى.

أما كيف تمت هذه المعجزة وكيف يتصورها العقل، فكما تتم كل معجزة غيرها من معجزات الكون والحياة !... لقد قلنا آنفاً أن كل مظاهر هذا الكون ليست فى حقيقتها إلا معجزات، فكما تتصورها العقول فى سهولة ويسر يمكن أن تتصور هذه أيضاً فى سهولة ويسر.

سادساً:- إحذر وأنت تبحث عن معجزة الإسراء والمعراج أن تركن الى ما يسمى ب (معراج ابن عباس) فهو كتاب ملفق من مجموعة أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند، وقد شاء ذاك الذى فعل فعلته الشنيعة أن يلصق هذه الأكاذيب بابن عباس رضى الله

عنهما، وقد علم كل مثقف بل كل إنسان عاقل أن ابن عباس برىء منه، وأنه لم يؤلف أى كتاب فى معراج الرسول، بل وما ظهرت حركة التأليف إلا فى أواخر عهد الأمويين.

ولما وقف دعاة السوء على هذا لاكتاب ووجدوا فيه من الأكاذيب المنسوبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكفل زعزعة إيمان كثير من الناس راحوا يروجون له ويدعون إليه (وكان فى جملة من كتب مادحاً ومعظماً الدكتور لويس عوض، وما أدراك من هو لويس عوض) مع أنهم يعلمون قبل سائر الناس أنه كتاب مكذوب على ابن عباس وأن أحاديثه كلها باطلة، ولكن الكذب سرعان ما ينقلب عندهم صحيحاً إذا كان فيه ما يشوش أفكار المسلمين ويلبس عليهم دينهم.

كلمة عامة عن الجهاد ومشروعيته

هذا، وما دام البحث سيسوقنا منذ الآن، الى الحديث عن الجهاد والقتال، فمن الجدير أن نقف هنا قليلا، لنتبين كفرة صحيحة عن الجهاد ومشروعيته ومراحله.

فقد كان الحديث ولا يزال أهم تكأة يعتمد عليها محترفوا الغزو الفكرى فى خلط حق بباطل وفى محاولة لفتح الثغرات فى جوانب صرح هذا الدين الحنيف بغية التشكيك فيه والنيل منه.

ولن تعجب من الدوافع الى حصر كل همّهم فى مشروعية الجهاد بخصوصه، إذا علمت بأن أخطر ركن من أركان الإسلام فى نظر أعدائه يخيفهم ويرعبهم، إنما هو الجهاد...! فهم يدركون أن هذا الركن إذا إستيقظ فى نفوسهم وأصبح ذا أثر فى حياة المسلمين فى أى عصر من الزمن فلن تقف أى قوة بالغة ما بلغت من الأهمية فى وجه الدفع الإسلامى، ولذا ينبغى أن يكون البدء فى القيام بأى عمل بغية إيقاف المدّ الإسلامى من هذه النقطة ذاتها.....

وسنوضح فى هذه الكلمة ا،لا : معنى الجهاد وغايته فى الإسلام، والمراحل التى تدرج فيه، ثم المرحلة التى إستقر عندها، ثم نبين المغالطات التى دخلت مفهومه، والتقسيمات المتكلفة التى حملت عليه مما لا وجه له.

أما معنى الجهاد : فهو بذل الجهد فى سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة المجتمع الإسلامى، وبذل الجهد بالقتال نوع من أنواعه.

وأما غايته : فهو إقامة المجتمع الإسلامى وتكوين الدولة الإسلامية الصحيحة.

وأما المراحل التى مر بها : فقد كان الجهاد فى صدر الإسلام، كما علمنا مقتصراً على الدعوة السلمية مع الصمود فى سبيلها للمحن والشدائد، ثم شرع الى جانبها - مع بدء الهجرة- القتال الدفاعى، أى رد كل قوة بمثلها، ثم شرع بعد ذلك قتال كل من وقف عقبة فى طريق إقامة المجتمع الإسلامى، على أن لا يقبل من الملاحدة والثنيين والمشركين إلا الإسلام وذلك لعدم إمكان الإنسجام بين المجتمع الإسلامى الصحيح وما هم عليه من الإلحاد والوثنية، أما أهل الكتاب فيكفى خضوعهم للمجتمع الإسلامى وانضوائهم فى دولته على أن يدفعوا للدولة ما يسمى (الجزية) مكان ما يدفعه المسلمون من الزكاة.

وعند هذه المرحلة الأخيرة إستقر حكم الجهاد فى االإسلام، وهذا هو واجب المسلمين فى كل عصر إذا توافرت لديهم القوة والعدةاللازمة. وعن هذه المرحلة يقول الله تعالى :(قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) وعنها أيضاً يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله).

ومن هنا تعلم أنه لا معنى لتقسيم الجهاد فى سبيل الله الى حرب دفاعية وأخرى هجومية، إذ مناط شرعة الجهاد ليس هو الدفاع لذاته ولا الهجوم لذاته، إنما مناطه حاجة إقامة المجتمع الإسلامى بكل ما يتطلبه من النظم والمبادىء الإسلامية، ولا عبرة بعد ذلك بكونه جاء هجوماً أو دفاعاً.

أما القتال الدفاعى المشروع، كدفاع المسلم عن ماله وعرضه أو أرضه أو حياته، فذلك نوع آخر من القتال لا علاقة له بالجهاد المصطلح عليه فى الفقه الإسلامى، وهو ما يسمى بقتال الصائل، وقد أفرد له الفقهاء باباً مستقلاً فى كتب الفقه، وما أكثر ما يخلط الباحثون اليوم بينه وبين الجهاد الذى نتحدث عنه...!

هذه خلاصة معنى الجهاد وغايته فى الشريعة الإسلامية، أما المغالطات والتشويهات التى دست عليه فتتمثل فى نظريتين متناقضتين فى الظاهر ولكنهما منسجمتان فى باطن الأمر وحقيقته، إذ يتكون من كليهما وسيلة واحدة متسعة تستهدف إلغاء مشروعية الجهاد من أساسه.

أما النظرية الأولى: فهى تلك التى تنادى بأن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف وأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه سلكوا مسلك الإكراه، فكان الفتح الإسلامى على أيديهم فتح قهر وبطش لا فتح قناعة وفكر.

وأما النظرية الثانية : فهى تلك التى تهتف بعكس ذلك تماماً، أى أن الدين الإسلامى دين محبة وسلام، لا يشرع فيه الجهاد إلا لرد العدوان المداهم، ولا يجاب أهله إلا إذا أرغموا على ذلك وبودئوا به.

ورغم أن هاتين النظريتين متناقضتان كما ذكرنا، فإن أرباب الغزو الفكرى أرادوا أن يستولدوا منهما غاية معينة، هى وحدها المقصودة من كلا هاتين النظريتين،وإليك إيضاح ذلك :

لقد أشاعوا وروجو أولاً أن الإسلام دين بطش وقهر وحقد على الآخرين، ثم إنتظروا حتى آتت هذه الشائعة ثمارها من ردود الفعل لدى المسلمين وإنكار هذا الظلم فى حق الإسلام........ وبينما المسلمون يتلمسون الرد على هذا الباطل، قام من أولئك المشككين أنفسهم من إصطنع الدفاع عن الإسلام بعد طول علم وبحث متجردين، وراح يرد هذه التهمة قائلا : إن الإسلام ليس كما قالوا دين سيف ورمح وبطش، بل هو على العكس من ذلك : دين محبة وسلام لا يشرع فيه الجهاد إلا لضرورة رد العدوان المداهم، ولا يرغب أهله فى الحرب ما وجدوا إلى الإسلام سبيل.

فصفق البسطاء من المسلمين طويلاً لهذا الدفاع (المجيد) فى غمرة تأثرهم من الظلم الشنيع الأول، وصادف ذلك فى نفوسهم التحفزة للرد عليه قبولاً ً واستحساناً، فأخذوا يؤيدون ويؤكدون، ويستخرجون البراهان تلو البرهان على أن الإسلام فعلاً كما قالوا...... دين مسالمة وموادعة لا شأن له بالآخرين إلا إذا داهموه فى عقر داره،وأيقظوه من هدأته وسباته وفات أولئك البسطاء أن هذه النتيجة المطلوبة، وهذا بعينه هو الغرض الذى التقى عليه فى السر كل من روّج الشائعة الأولى ثم أشاع الباطل الثانى. فالمقصود هو السلوك بمقدمات ووسائل مدروسة مختلفة، تنتهى الى نسخ فكرة الجهاد من أذهان المسلمين، وإماتة روح الطموح فى نفوسهم.

ونحن نسوق لك شاهداً على ذلك، ما ذكره زميلنا الأستاذ الدكتور / وهبة الزحيلى فى كتابه (آثار الحرب فى الفقه الإسلامى) على لسان المستشرق الإنكليزى المعروف (أندرسن)، ولننقل لك عبارته من أولها (يخاف الغربيون لا سيما الإنكليز من ظهور فكرة الجهاد فى أوساط المسلمين حتى لا تتوحد كلمتهم فيقفوا أمام أعدائهم، ولذلك يحاولون الترويج لفكرة نسخ الجهاد، وصدق الله العظيم إذ يقول فيمن لاإيمان لهم :(فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) ولقد قابلت المستشرق الإنكليزى أندرسن فى مساء الجمعة 3 حزيران 1960، فسألته عن رأيه فى هذا الموضوع فكان من نصيحته لى أن أقول : إن الجهاد اليوم ليس بفرض بناء على مثل قاعدة (تتغير الأحكام بتغير الأزمان)، إذ أن

الجهاد فى رأيه لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة لإرتباط المسلمين بالمنظمات العالمية والمعاهدات الدولية . ولأن الجهاد هو الوسيلة لحمل الناس على الإسلام، وأوضاع الحرية ورقى العقول لا تقبل فكرة تفرض بالقوة).

ونعود إلى ما كنا عليه من حديث بيعة العقبة الثانية :

لأمر ما أراد الله عز وجل، إنتهى الى سمع المشركين من اهل مكة خبر هذه البيعة، وما تم فيها بين النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين من أهل المدينة، ولعل من خكمة ذلك تهيىء أسباب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة، فسنجد أن لهذا الخبر الذى إنتهى الى مسامع قريش أثراً كبيراً فى تضييقهم الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماعهم الرأى على قتله والتخلص منه.

ومهما يكن فإن بيعة العقبة الثانية كانت المقدمة الأولى لهجرته عليه الصلاة والسلام الى المدينة المنورة.

إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة الى المدينة

قال ابن سعد فى طبقاته يروى عن عائشة رضى الله عنها : لما صدر السبعون من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت نفسه، فقد جعل الله له منعة وقوماً وأهل حرب وعدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج ، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم، ونالوا ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنوه فى الهجرة، فقال : (قد أخبرت بدار هجرتكم وهى يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها) فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحابه صلى الله عليه وسلم أبو سلمة بن عبد الأسد ثم قدم بعده عامر ابن ربيعة ومعه إمرأته بنت أبى حشمة، فهى أول ظعينة قدمت المدينة ثم قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالاً فنزلوا على الأنصار فى دورهم، فآووهم ونصروهم وآسوهم.

ولم يهاجر أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متخفياً غير عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، فقد روى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه أنه لمّا همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه، وانتضى فى يده أسهماً، واختصر عنزته (عصاه) ومضى قبل الكعبة، والملأ من قر يش بفنائها فطاف فى البيت سبعاً متمكناً مطمئناً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف فقال :(شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يثكل أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى)

قال علىّ فما إتبعه إلا قوم مستضعفون علّمهم ما أرشدهم ثم مضى لوجهه.

وهكذا تتابع المسلمون فى الهجرة الى المدينة حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلىّ، أو معذب محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج.

العبر والعظات :

كانت قتنة المسلمين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة، فتنة الإيذاء والتعذيب وما يرونه من المشركين من ألوان الهزء والسخرية، فلما أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة، أصبحت فتنتهم فى ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم، ولقد كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم، أمام الفتنة الأولى والثانية، قابلوا المحن والشدائد بصبر ثابت وعزم عنيد.

حتى إذا أشار عليهم رسول الله بالهجرة الى المدينة، توجهوا إليها وقد تركوا من ورائهم الوطن وما لهم فيه من مال ومتاع ونشب، ذلك أنهم خرجوا مستخفين متسللين، ولا يتم ذلك إلا إذا تخلصوا من الأمتعة والأثقال، فتركوا كل ذلك فى مكة ليسلم لهم الدين، واستعاضوا عنها بالأخوة الذين ينتظرونهم فى المدينة ليؤووهم وينصرونهم.

وهذا هو المثل الصحيح للمسلم الذى أخلص الدين لله : لا يبالى بالوطن ولا بالمال والنشب فى سبيل أن يسلم له دينه. هذا عن أصحاب رسول الله فى مكة.

أما أهل المدينة الذين آووهم فى بيوتهم وواسوهم ونصروهم، فقد قدموا المثل الصادق للأخوة الإسلامية والمحبة فى الله تعالى.

وأنت خبير أن الله عز وجل قد جعل أخوة الدين أقوى من أخوة النسب وحدها، ولذلك كان الميراث فى صدر الإسلام على أساس وشيجة الدين، وأخوته والهجرة فى سبيله، ولم يستقر حكم الميراث على أساس علاقة القرابة إلا بعد تكامل أفسلام فى المدينة وصارت للمسلمين دار إسلام قوية منيعة.

يقول الله عز وجل : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أو لياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا).

ثم إنه يستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكمان شرعيان :

1- وجوب الهجرة من دار الحرب الى دار الإسلام، وروى الطبرى عن ابن العربى (أن هذه الهجرة كانت فرضاً فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم، وهى باقية مفروضة الى يوم القيامة. والتى إنقطعت بالفتح، إنما هى القصد الى النبى صلى الله عليه وسلم، فإن بقى فى دار الحرب عصى) ومثل دار الحرب فى ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيه إقامة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة.

وما يستدل على ذلك قوله تعالى :(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا ؟ فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا).

2- وجوب نصرة المسلمين لبعضهم مهما إختلفت ديارهم وبلادهم ما دام ذلك ممكناً، فقد اتفق العلماء والأئمة على أن المسلمين إذا قدروا على إستنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين، فى أى جهة من جهات الأرض، ثم لم يفعلوا ذلك فقد باؤا بإثم كبير.

يقول أبو بكر العربى : إذا كان فى المسلمين أسراء أو مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة بالبدن، بأن لا تبقى منا عين تطرف، حتى نخرج الى إستنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا فى إستخراجهم، حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك.

وكما تجب موالاة المسلمين ونصرتهم لبعضهم، فإنه يجب أن تكون هذه الموالاة فيما بينهم، ولا يجوز أن يشيع شىء من الولاية والتناصر أو التآخى بين المسلمين وغيرهم، وهذا ما يصرح به كلام الله عز وجل، إذ يقول :(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير).

يقول ابن العربى قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين، فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم ويتعاملون بإعتقادهم.

ولا ريب أن تطبيق مثل هذه التعاليم الإلهية، هى أساس نصرة المسلمين فى كل عصر وزمن، كما أن إهمالهم لها وانصرافهم الى ما يخالفها هو أساس ما نراه اليوم من ضعفهم وتفككهم وتألب أعدائهم عليهم من وكل جهة وصوب.

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

جاء فى صحاح السنة وما رواه علماء السيرة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما وجد المسلمين قد تتابعوا مهاجرين الى المدينة، جاء يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الآخر فى الهجرة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :(على رسلك، فإنى أرجو أن يؤذن لى) فقال أبو بكر :(وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟) قال :(نعم) فحبس ابو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده، وأخذ يتعهدهما بالرعاية أربعة أشهر.

وفى هذه الأثناء رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صارت له شيعة وأصحاب غيرهم بغير بلدهم، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وخافوا أن يكون قد أجمع لحربهم.

فاجتمعوا له فى دار الندوة (وهى دار قصى ابن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها) يتشاورون فيما يصنعون بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمع رأيهم أخيراً على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً، ثم يعطى كل منهم سيفاً صارما، ثم يعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، كى لا تقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً، وضربوا لذلك ميعاد يوم معلوم فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بالهجرة، وينهاه أن ينام فى مضجعه تلك الليلة.

قالت عائشة رضى الله عنها فيما يروى البخارى : فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى حر الظهيرة، قال قائل لأبى بكر :(هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها) فقال أبو بكر :(فداً أبى وأمى، والله ما جاء فى هذه الساعة إلا لأمر) قالت : فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال البنى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : (أخرج من عندك) فقال أبة بكر :(إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(فإنى قد أذن لى فى الخروج) فقال أبو بكر : (الصحبة يارسول الله)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(نعم) فقال ابو بكر :(فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بالثمن).

قالت عائشة : فجهزناهما أحث جهاز، وصنعنا لهما سفرة فى جراب، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق.

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس، إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شىء يخشى عليه إلا إستودعه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يعلمون من صدقه وأمانته. وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقوله الناس عنهما فى بياض النهار، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون معه من أخبار. وأمر عامر ابن فهيرة (مولاه) أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى إلى الغار (غار ثور) ليطعما من ألبانها، وأمر أسماء بنته أن تأتيهما من الطعام بما يصلحهما فى كل مساء.

وروى ابن إسحاق والإمام أحمد، كلاهما عن يحى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير، عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج معه أبو بكر، إحتمل أبو بكر ماله كله معه : خمسة آلاف درهم أو ستة بلاف درهم، قالت وانطلق بها معه، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت : قلت :كلا يا ابت، إنه قد ترك لنا خيراً كيثراً، قالت: فأخذت احجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت ياابت ضع يدك على هذا المال، فقالت: فوضع يده عليه، قال : لابأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكنى أردت أن أسكت الشيخ بذلك.

ولما كانت عتمة تلك الليلة التى هاجر فيها النبى صلى الله عليه وسلم إجتمع المشركون على باب رسول اله صلى الله عليه وسلم يتربصون به ليقتلوه، ولكنه عليه الصلاة والسلام خرج من بينهم وقد ألقى الله عليهم سنة من النوم بعد أن ترك علياً رضى الله عنه فى مكانه نائماً على فراشه، وطمأنه بأنه لن يصل إليه أى مكروه.

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الى غار ثور ليقيما فيه، وكان ذلك على الراجح فى اليوم الثانى من ربيع الأول الموافق 20 أيلول سنة (622 م) بعد أم مضى ثلاثة عشر سنة من البعثة، فدخل أبو بكر قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار، لينظر أفيه سبع أو حيّة، يقى رسول الله صلى اله عليه وسلم بنفسه، فأقاما فيه ثلاثة أيام، وكان يبيت عندهما عبد الله ابن أبى بكر يخبرهما بأخبار مكة، ثم يدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها، وكان عامر ابن فهيرة يروح عليهما بقطيعه من الغنم، فإذا خرج من عندهما عبد الله تبع عامر أثره بالغنم كى لا يظهر لقدميه أثر.

أما المشركون فقد إنطلقوا - بعد أن علموا بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم - ينتشرون فى طريق المدينة يفتشون عنه فى كل المظان، حتى وصلوا الى غار ثور، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أقدام المشركين تخفق من حولهم فأخذ الروع أبا بكر وهمس يحدث النبى صلى الله عليه وسلم : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا، فأجابه عليه الصلاة والسلام :(يا أبا بكر ما ظنك بإثنين الله ثالثهما)...

فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحن لأحد منهم إلتفاتة الى ذلك الغار ولم يخطر ببال واحد منهم أن يتساءل عما يكون بداخله.

ولما إنقطع الطلب عنهما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر، بعد أن جاءهما عبد الله ابن أرقط وهو من المشركين، كانا قد إستأجراه ليدلهما على الطرق الخفية الى المدينة بعد أن إطمأنا إليه، وواعداه مع الراحلتين عند الغار) فسارا متبعين طريق الساحل بإرشاد من عبد الله بن أرقط، وكان قد جعل مشركوا مكة لكل من أتى برسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه ديّة كل منهما. وذات يوم، بينما كان جماعة من بنى مدلج فى مجلس لهم، وبينهم سراقة ابن جعشم، إذ اقبل إليهم رجل منهم فقال : إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه، فعرف سراقة أنهم هم، ولكنه أراد أن يثنى عزم غيره عن الطلب، فقال له : إنك قد رأيت فلاناً وفلانا، إنطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم. ثم لبث فى المجلس ساعة، وقام فركب فرسه ثم سار حتى دنا من رسول الله فعثرت به فرسه فخرّ عنها، ثم ركبها ثانية وسار حتى صار يسمع قرأة النبى صلى اله عليه وسلم وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الإلتفات، فساخت قائمتا فرس سراقة فى الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت، فلم تكد تخرج قدميها حتى سطع لأثرهما غبار إرتفع فى السماء مثل الدخان، فعلم سراقة أنه ممنوع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وداخله رعب عظيم، فناداهما بالأمان.فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه حتى وصل إليهم، فاعتذر إليه وساله أن يستغفر له، ثم عرض عليهما الزاد والمتاع، فقالا : لا حاجة لنا، ولكن عمّ عنا الخبر، فقال كفيتم.

ثم عاد سراقة أدراجه الى مكة وهو يصرف أنظار الناس عن الرسول ومن معه بما يراه من القول.............

وهكذا إنطلق إليهما فى الصباح جاهداً فى قتلهما، وعاد فى المساء يحرسهما ويصرف الناس عنهما

قدوم قباء

ووصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء، فاستقبله من فيها بضعة أيام نازلاً على كلثوم بن هدم، حيث أدركه فيها على رضى الله عنه بعد أن أدى عنه الودائع الى أصحابها، وأسس النبى صلى الله عليه وسلم هناك مسجد قباء، وهو المسجد الذى وصفه الله بقوله :(لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق

أن تقوم فيه....) الآية.

ثم واصل سيره الى المدينة فدخلها لآثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول على ما ذكره المسعودى فالتف حوله الأنصار، كل يمسك زمام راحلته يرجوه النزول عنده فكان صلى الله عليه وسلم يقول لهم : دعوها فإنها مأمورة فلم تزل راحلته تسير فى فجاج المدينة وسككها حتى وصلت الى مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار أمام دار أبى أيوب الأنصارى، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :(ههنا

المنزل إن شاء الله) وجاء أبو أيوب فاحتمل الرحل الى بيته، وخرجت ولائد من بنى النجار - فيما يرويه ابن هشام - فرحات بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجواره لهن، وهنّ ينشدنّ

نحن جوار بنى النجار يا حبذا محمد من جار

فقال عليه السلام لهنّ : (أتحببننى ؟) فقلن : نعم فقال : الله يعلم أن قلبى يحبكنّ)

صورة عن مقام النبى صلى الله عليه وسلم فى دار أبى أيوب

روى أبو بكر ابن أبي شيبة وابن إسحاق والإمام أحمد ابن حنبل من طرق متعددة بألفاظ متقاربة أن أبا أيوب رضى الله عنه قال وهو يحدث عن أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى فى أسفل البيت وأنا وأم أيوب فى العلو، فقلت له : يانبى الله بأبى أنت وأمى إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى، فاظهر أنت فكن فى الأعلى، وننزل نحن نكون فى السفل، فقال : يا أبا أيوب، إنه لأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى أسفل البيت.

قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفله وكنا فوقه فى المسكن، ولقد إنكسرت جرّة لنا فيها ماء يوما، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء فيؤذيه، فنزلت إليه وأنا مشفق، فلم أزل أستعطفه حتى إنتقل الى العلو. قال : وكنا نضع له العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلاً وثوماً، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر ليده فيه أثر، فجئته فزعاً فقلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك، وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك أتيمم أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة، فقال : إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجى، فأما أنتم فكلوه، قال : فأكلناه، ثم لم نضع فى طعامه شيئاً من الثوم أو البصل بعد.

العبر والعظات :

تحدثنا فى فصل سابق، عن معنى الهجرة فى الإسلام، عند تعليقنا على هجرة المسلمين الأولى الى الحبشة، وقلنا إذ ذاك ما خلاصته : إن الله عز وجل جعل قداسة الدين والعقيدة فوق كل شىء، فلا قيمة للأرض والوطن والمال والجاه إذا كانت العقيدة وشعائر الدين مهددة بالحرب والزوال، ولذا فرض الله على عباده أن يضحوا بكل ذلك - إذا إقتضى الأمر - فى سبيل العقيدة والإسلام.

وقلنا أيضا أن سنة الله تعالى فى الكون إقتضت أن تكون القوى المعنوية التى تتمثل فى العقيدة السليمة والدين الحق هى المحافظة للمكاسب والقوى المادية، فمهما كانت الأمة غنية فى خلقها السليم متمسكة بدينها الصحيح فإن سلطانها المادى المتمثل فى الوطن والمال والعزة يغدو أكثر تماسكاً وأرسخ بقاءاً وأمنع جانباً. ومهما كانت فقيرة فى أخلاقها مضطربة تائهة فى عقيدتها فإن سلطانها المادى المتمثل فيما ذكرناه يغدو أقرب الى الإضمحلال والزوال، وقلنا إن التاريخ أعظم شاهد على ذلك.

ولذلك شرع الله عز وجل مبدأ التضحية بالمال والأرض فى سبيل العقيدة والدين عندما يقتضى الأمر، فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال والطن والحياة، وإن بدا لأول وهلة أنهم تعروا عن كل ذلك وفقدوه.

وحسبنا دليلاً على هذه الحقيقة هجرة رسول اله صلىالله عليه وسلم من مكة الى المدينة، لقد كانت بحسب الظاهر تركاً للوطن وتضييعاً له، ولكنه كان فى واقع الأمر حفاظاً عليه وضمانة له، ورب مظهر من مظاهر الحفاظ على الشىء يبدو فى صورة الترك والإعراض عنه فقد عاد بعد بضع سنين من هجرته هذه - بفضل الدين الذى أقام صرحه ودولته - الى وطنه الذى أخرج منه، عزيز الجانب، منيع القوة، دون أن يستطيع أحد من أولئك الذين تربصوا به ولاحقوه بقصد القتل أن يدنوا إليه بأى سوء...

ولنعد الآن الى التأمل فيما سردناه من قصة هجرته صلى الله عليه وسلم لنستنبط منها الدلالات والأحكام الهامة لكل مسلم :

1- من أبرز ما يظهر لنا من قصة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إستبقاؤه لأبى بكر رضى الله عنه دون غيره من الصحابة كى يكون رفيقه فى هذه الرحلة.

وقد إستنبط العلماء من ذلك مدى محبة الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وأنه أقرب الصحابة إليه وأولاهم بالخلافة من بعده، ولقد عززت هذه الدلالات أموراً كثيرة أخرى مثل إستخلافه له فى الصلاة بالناس عند مرضه وإصراره على أن لا يصلى عنه غيره، ومثل قوله فى الحديث الصحيح :(لو كنت متخذاً خليلاً لإتخذت أبا بكر خليلا).

ولقد كان ابو بكر رضى الله عنه - كما رأينا - على مستوى هذه المزية التى أكرمه اله بها، فقد كان مثال الصاحب الصادق بل المضحى بروحه وبكل ما يملك من أجل رسول الله صلى الله عليسه وسلم، ولقد رأينا كيف أبى إلا أن يسبق رسول الله فى دخول الغار كى يجعل من نفسه فداءاً له عليه الصلاة والسلام فيما إذا كان فيه سبع أو حية أو أى مكروه ينال الإنسان منه الأذى، ورأينا كيف جند أمواله وأولاده ومولاه وراعى أغنامه فى سبيل خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الرحلة الشاقة الطويلة. ولعمرى إن هذا ما ينبغى أن يكون عليه شأن كل مسلم آمن بالله ورسوله، ولذا يقول رسول الله صلى اله عليه وسلم :(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين).

2- قد يخطر فى بال المسلم أن يقارن بين هجرة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وهجرة النبى صلى الله عليه وسلم ويتساءل : لماذا هاجر عمر علانية متحدياً المشركين دون أى خوف ووجل، على حين هاجر رسول الله مستخفياً محتاطاً لنفسه؟ أيكون عمر ابن الخطاب أشد جرأة من النبى صلى الله عليه وسلم؟

والجواب ان عمر ابن الخطاب أو أى مسلم آخر غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبر تصرفه تصرفاً شخصياً لا حجة تشريعية فيه، فله أن يتخير من الطرق والوسائل والأساليب ما يحلو له وما يتفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مشرّع، أى أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعاً لنا، ولذلك كانت سنته هى المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريره، فلو أنه فعل كما فعل عمر، لحسب الناس أن هذا هو الواجب !... وأنه لايجوز أخذ الحيطة والحذر،والتخفى عند الخوف، مع أن الله عز وجل أقام شريعته فى هذه الدنيا على مقتضى الأسباب والمسببات،وإن كان الواقع الذى لا شك فيه أن ذلك بتسبيب الله تعالى وإرادته، لأجل ذلك استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الأسباب المادية التى يهتدى إليها العقل البشرى فى مثل هذا العمل، حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل إلا إعتد بها واستعملها، فترك على ابن أبى طالب ينام فى فراشه ويتغطى ببرده، واستعان بأحد المشركين - بعد أن أمنه- ليدله على الطرق الفرعية التي قد لا تخطر فى بال الأعداء، وأقام فى الغار ثلاثة أيام متخفياً، إلى آخر ما عبأه من الاحتياطات المادية التي قد يفكر بها العقل، ليوضح بذلك أن الإيمان بالله عز وجل لا ينافى إستعمال الأسباب المادية التى أرادت حكمة الله تعالى أن تكون أسباباً.

وليس قيامه بذلك بسبب خوف فى نفسه، أو شك فى إمكان وقوعه فى قبضة المشركين قبل وصوله المدينة، والدليل على ذلك أنه عليه الصلاة والسلام بعد أن إستنفد الأسباب المادية كلها، وتحلق المشركون حول الغار الذى يختبىء فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه - بحيث لو نظر احدهم عند قدمه لأبصر الرسول صلى الله عليه وسلم - إستبد الخوف بابى بكر رضى الله عنه على حين كان يطمئنه عليه الصلاة والسلام قائلاً : يا أبا بكر : (ما ظنك بإثنين الله ثالثهما) ولقد كان من مقتضى إعتماده على كل تلك الإحتياطات أن يشعر بشىء من الخوف والجزع فى تلك الحال.

لقد كان كل ما فعله من تلك الإحتياطات إذاً وظيفة تشريعية قام بها، فلما إنتهى من أدائها، عاد قلبه مرتبطاً بالله تعالى معتمداً على حمايته وتوفيقه، ليعلم المسلمون أن الإعتماد فى كل أمر لا ينبغى أن يكون إلا على الله عز وجل، ولكن لا ينافى ذلك إحترام الأسباب التى جعلها الله فى هذا الكون أسباباً. ومن أبرز الأدلة على هذا الذى نقوله أيضاً، حالته صلى الله عليه وسلم عندما لحق به سراقة

يريد قتله وأصبح على مقربة منه، لقد كان من مقتضى تلك الإحتياطات الهائلة التى قام بها أن يشعر بشىء من الخوف من هذا الذى يجد فى اللحاق به بل كان مستغرقاً فى قراءته ومناجاته ربه لأنه يعلم أن الله الذى أمره بالهجرة سيمنعه من الناس ويعصمه من شرهم كما بين فى كتابه المبين.

3- وفى تخلف علىّ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أداء الودائع التى كانت عنده الى أصحابها دلالة باهرة على التناقض العجيب الذى كان المشركون واقعين فيه، ففى الوقت الذى كانوا يكذبونه ويرونه ساحراً أو مخادعاً لم يكونوا يجدون من حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً، فكانوا لا يضعون حوائجهم وأموالهم التى يخافون عليها إلا عنده...! وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم فى صدقه، وإنما هو بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذى جاء به وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم.

4- ثم إننا نلمح فى النشاط الذى كان يبذله عبد الله ابن أبى بكر رضى الله عنه، ذاهباً آيباً بين الغار ومكة، يتحسس الأخبار وينقلها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبيه، وفيما عمدت إليه أخته أسماء رضى الله عنها من الجد فى تهيىء الزاد والراحلة واشتراكها فى إعداد العدة لتلك الرحلة - نلمح فى ذلك صورة مما يجب أن يكون عليه الشباب المسلم ذكوراً وإناثاً فى سبيل الله عز وجل ومن أجل تحقيق مبادىء الإسلام وإقامة المجتمع المسلم، فلا يكفى أن يكون الإنسان منطوياً على نفسه مقتصراً على عباداته، بل عليه ان يستنفد طاقاته وأوجه نشاطه كلها سعياً فى سبيل الإسلام، وتلك هى مزية الشباب فى حياة الإسلام والمسلمين فى كل زمن وعصر.

وإذا تأملت فيمن كان حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إبان دعوته وجهاده، وجدت أن أغلبيتهم العظمى كانوا شباباً لم يتجاوزوا المرحلة الأولى فى عمر شبابهم، ولم يألوا جهداً فى تجنيد طاقاتهم وقوتهم من أجل نصرة الإسلام وإقامة مجتمعه.

5- أمّا ما حدث لسراقة وفرسه وهو يلحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم فينبغى أن لا يفوتنا أنها معجزة خارقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إتفق أئمة الحديث على صحتها ونقلها وفى مقدمتهم البخارى ومسلم، فأضفها الى معجزاته الأخرى التى سبق الحديث عنها فيما مضى.

6- ومن أبرز المعجزات الخارقة فى قصة هجرته عليه الصلاة والسلام خروجه صلى الله عليه وسلم من بيئته وقد أحاط به المشركون يتربصون به ليقتلوه، فقد علق النوم بأعينهم جميعاً حتى لم يحس به أحد منهم، وكان من تتمة السخرية بتآمرهم على حياته ما إمتلأت به رؤسهم من التراب الذى ألقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رؤوسهم إذ خرج من بينهم وهو يتلو قوله تعالى :(وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون).

لقد كانت هذ المعجزة بمثابة إعلان لهؤلاء المشركين وغيرهم فى كل عصر ووقت، بأن ما قد يلاقيه الرسول وصحبه من ألوان الإضطهاد والعذاب على أيديهم مدة من الزمن فى سبيل دينه، لا يعنى أنه قد تخلى عنهم وأن النصر قد إبتعد عن متناولهم، فلا ينبغى للمشركين وعامة أعداء الدين أن يفرحوا ويستبشروا بذلك، فإن نصر الله قريب وإن وسائل هذا النصر توشك أن تتحقق بين كل لحظة وأخرى.

7- وتكشف الصورة التى إستقبلت بها المدينة المنورة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مدى المحبة الشديدة التى كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالاً ونساءاً وأطفالاً، لقد كانوا يخرجون كل يوم الى ظاهر المدينة ينتظرون تحت لفح الشمس وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، حتى إذا هبّ النهار ليدبر، عادوا أدراجهم ليعودوا إلى الإنتظار صباح اليوم التالى، فلما طلع الرسول عليهم جاشت العواطف فى صدورهم وانطلقت ألسنتهم تهتف بالقصائد والأهازيج فرحاً لمرآه عليه الصلاة والسلام ومقدمه عليهم، ولقد بادلهم رسول الله صلى اله عليه وسلم نفس المحبة، حتى إنه جعل ينظر إلى ولائد بنى النجار من حوله، وهنّ ينشدنّ ويتغنين بمقدمه، قائلاً : أتحببننى ؟ والله إن قلبى ليحبكنّ.

يدلنا كل ذلك أن محبة رسول اله صلى الله عليه وسلم ليست فى مجرد الإتباع له، بل المحبة له هى أساس الإتباع وباعثه، فلولا المحبة العاطفية فى القلب لما وجد وازع يحمل على الإتباع فى العمل.

ولقد ضل قوم حسبوا أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لها معنى إلا الإتباع والإقتداء وفاتهم أن الإقتداء لا يأتى إلا بوازع ودافع، ولن تجد من وازع يحمل على الإتباع إلا المحبة القلبية التى تهز المشاعر وتستبد بالعواطف، ولذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مقياس الإيمان بالله إمتلاء القلب بمحبته صلى الله عليه وسلم، بحيث تغدو متغلبة على محبة الولد والوالد والناس أجمعين، وهذا يدل على أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم من جنس محبة الولد والوالد أى مصدر كل منهما العاطفة والقلب وإلا لم تصح المقارنة والتفضيل بينهما.

8- أما الصورة التى رأيناها فى مقامه صلى الله عليه وسلم عند أبى أيوب الأنصارى فى منزله، فتكشف لنا مظهر آخر من مظاهر محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه والسلام له.

والذى يهمنا من ذلك هنا، هو التأمل فى تبرك أبو أيوب وأم أيوب، بآثار أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قطعة الطعام، حينما كان يرد عليهما فضل طعامه، إذاً فالتبرك بآثار النبى صلى الله عليه وسلم مشروع قد أقره صلى الله عليه وسلم.

وقد روى البخارى ومسلم صوراً كثيرة من تبرك الصحابة بآثار النبى صلى الله عليه وسلم والتوسل بها للإستشفاء أو العناية والتوفيق وما شابه ذلك.

من ذلك ما رواه البخارى فى كتاب اللباس، فى باب ما يذكر فى الشيب، من أن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم كانت تحتفظ بشعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم فى جلجل لها (ما يشبه القارورة يحفظ فيه ما يراد صيانته) فكان إذا أصاب أحد من الصحابة عين أو أذى أرسل إليها إناء فيه ماء، فجعلت الشعرات فى الماء، ثم أخذوا الماء يشربونه توسلا للإستشفاء والتبرك به.

ومن ذلك ما رواه مسلم فى كتاب الفضائل باب (طيب عرقه صلى الله عليه وسلم) أنه عليه الصلاة والسلام كان يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست هى فى البيت، فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فجاءت أم سليم وقد عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدها فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره فى قواريرها، فأفاق النبى صلى الله عليه وسلم فقال: ما تصنعين يا أم سليم ؟ فقالت يارسول الله : نرجو بركته لصبياننا، قال : أصبت)

ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين من إستباق الصحابة إلى فضل وضوئه صلى الله عليه وسلم والتبرك بالكثير من آثاره كألبسته والقدح الذى كان يشرب به.

فإذا كان هذا شأن التوسل بآثاره المادية فكيف بالتوسل بمنزلته عند الله عز وجل وكيف بالتوسل بكونه رحمة للعالمين ؟

ولا يذهبن بك الوهم إلى أننا نقيس التوسل على التبرك،وأن المسألة لا تعدو أن تكون إستدلالا بالقياس، فإن التوسل والتبرك كلمتان تدلان على معنى واحد وهو إلتماس الخير والبركة عن طريق المتوسل به. وكل من التوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم عند الله والتوسل بآثاره أو فضلاته أو ثيابه، أفراد وجزئيات داخلة تحت نوع شامل هو مطلق التوسل الذى ثبت حكمه بالأحاديث الصحيحة، وكل الصور الجزئية له يدخل تحت عموم النص بواسطة ما يسمى ب (تنقيح المناط) عند علماء الأصول.

ولنكتف من تعليقنا على قصة هجرته صلى الله عليه وسلم عند هذا القدر، لنتحدث بعد ذلك عن الأعمال الجليلة التى بدأ يقوم بها صلى الله عليه وسلم فى المجتمع الجديد فى المدينة المنورة.

مرحلة الحرب الدفاعية

مقدمة

هذه الغزوات التالية، التى وضعناها تحت عنوان : مرحلة الحرب الدفاعية،هى غزوات دفاعية فعلاً، فكل منها - كما سترى- ردّ على مؤامرة أو عدوان بدأ به المشركون، ولذلك فهى إنما تمثل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية فى عصره صلى الله عليه وسلم وليست تعبيراً عن الحكم الذى إستقر على اساسه الجهاد فى الإسلام، إنها ليست إلا دوراً من أدوار الدعوة التى تحدثنا عن قسم منها، كدورة الدعوة سراً ثم الدعوة المسالمة جهراً.

وسنجد صورة المرحلة الأخيرة التى تشكل مع ما قبلها جملة الحكم الإسلامى فى الأحداث التى تلت صلح الحديبية، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم الى تلك النرحلة حينما قال لدى منصرفه من غزوة بنى قريظة، فيما رواه البخارى : الآن نغزوهم ولا يغزوننا.
وإليك الآن أحداث المرحلة الدفاعية فى عمر الدعوة الإسلامية الأولى، مكتفين منها بذكر ما يتعلق به حكم، أو يترتب عليه عظة أو درس، دون أن نعرج الى تفصيلات أو ذكر خفات تطيل علينا البحث فى غير طائل.

بدء القتال - أول غزوة غزاها رسول الله- غزوة بدر الكبرى

قلنا فيما مضى إن صح ما دلت عليه الأحاديث والآثار أن بدء مشروعية القتال إنما كانت بعد الهجرة، ولقد وضعت مشروعية هذا الجهاد موضع التنفيذ فى شهر صفر على رأس إثنى عشر شهراً من هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة، فقد حرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لأول مرة بقصد الغزو، وكانت الغزوة إذ ذاك : غزوة ودان، يريد قريشاً وبنى حمزة، ولكنه صلى الله عليه وسلم كفى القتال فقد وادعه بنو حمزة، وعاد النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه الى المدينة بدون قتال.

غزوة بدر الكبرى

وسببها أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع بعير تجارية لقريش قادمة من الشام بإشراف أبي سفيان ابن حرب، فندب المسلمين إليها، ليأخذوها لقاء ما تركوا من أموالهم فى مكة، فخف بعضهم لذلك وتثاقل آخرون، إذ لم يكونوا يتصورون قتالاً فى ذلك.

وتحسس أبو سفيان الأمر وهو فى طريقه الى مكة، فبلغه عزم المسلمين على خروجهم لأخذ العير، فأرسل ضمضم ابن عمرو الغفارى الى مكة ليخبر قريشاً بالخبر ويستفزهم للخروج محافظة على أموالهم.

فبلغ الخبر قريشاً، فتجهزوا سراعاً، وخرج كل منهم قاصدين الغزو، حتى إنهم لم يتخلف من أشراف قريش أحد وكانو قريباً من ألف مقاتل.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليال مضت من شهر رمضان مع أصحابه وكانوا فيما رواه ابن إسحاق، ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاص، وكانت إبلهم سبعين، يتعاقب على الواحد منها إثنان أو ثلاثة من الصحابة، وهم لا يعلمون من أمر قريش وخروجهم شيئاً، أما أبو سفيان فقد أتيح له أن يحرز عيره، إذ سلك طريق الساحل الى مكة وجعل ماء بدر عن يساره وأخذ يسرع حتى أنجى عيره وتجارته من الخطر

ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم أتاه خبر مسير قريش الى المسلمين، فاستشار من معه من أصحابه فتكلم المهاجرون فقالوا كلاماً حسناً ً، وكان منهم المقداد ابن عمرو فقد قال : يا رسول الله إمض لما أمرك الله فنحن معك..... ولكن النبى صلى الله عليه وسلم ظل

ينظر الى القوم ويقول لهم : أشيروا علىّ أيها الناس، فقال له سعد ابن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال : أجل، فقال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق لو إستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين......... والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم.

ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ يتحسس أخبار قريش وعددهم عن طريق العيون التى بثها حتى علم المسلمون أنهم بين تسعمائة وألف، وأن فيهم عامة زعماء المشركين.

وقد كان أبو سفيان أرسل إليهم أن يرجعوا إلى مكة، إذ أنه قد أحرز العير، ولكن أبا جهل أصر على المضى، وكان مما قال : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا جميعاً فلا يزالون يهابوننا.

ثم إنهم مضوا حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أدنى ماء من مياه بدر، فقال الحباب ابن المنذر : يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال: بل هو الحرب والرأى والمكيدة، فقال : فإ، هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من الآبار، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحول الى المكان والرأى الذى أشار به الحباب ابن المنذر رضى الله عنه.

واقترح سعد ابن معاذ أن يبنى عريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم يكون بمأمن فيه رجاء أن يعود سالماً الى من تخلف من المسلمين فى المدينة وأن لا ينكبوا بفقده، فوافق عليه الصلاة والسلام على ذلك، ثم أخذ يطمئن أصحابه بتأييد الله ونصره، حتى أنه كان يقول، هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان (أى من المشركين) ة وهو يضع يده على الأرض ههنا وههنا..... فما تزحزح أحدهم فى مقتله عن موضع يده.... !.

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يجأر الى الله تعالى بالدعاء مساء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان ويقول : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحنهم الغداة..... وظل يناشد الله متضرعا وخاشعاً وهو يبسط كفيه الى السماء حتى أشفق عليه أبو بكر رضى الله عنه، فالتزمه من ورائه وقال له : يا رسول الله ! أبشر فوالذى نفسى بيده لينجزنّ الله لك ما وعدك، وأقبل المسلمون أيضاً يستنصرون الله ويستغيثونه ويخلصون له فى الضراعة، وفى صبيحة يوم الجمعة لسنتين خلتا من الهجرة بدأ القتال بين المشركين والمسلمين، وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريش وقال : شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها فلم يبق رجل إلا إمتلأت عيناه منها، وأيد الله المسلمين بالملائكة يقاتلون الى جانبهم وانحسر القتال عن نصر كبير للمسلمين، وقتل فى تلك الموقعة سبعون من صناديد المشركين، وأسر سبعون، واستشهد من المسلمين اربعة عشر رجلاً.

وألقيت جثث المشركين الذين صرعوا فى هذه الغزوة - وفيهم عامة صناديدهم - فى قليب بدر، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على شفة البئر فجعل يناديهم باسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان ابن فلان ويافلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ك والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع مما أقول منهم.

واستشار النبى صلى الله عليه وسلم اصحابه فى أمر الأسرى، فاشار عليه أبو بكر رضى الله عنه أن يأخذ منهم فدية من المال تكون قوة للمسلمين ويتركهم عسى الله أن يهديهم، وأشار عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بقتلهم لأنهم أئمة الكفر وصناديده، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم مال الى ما رآه ابو بكر من الرحمة بهم وافتدائهم بالمال، وحكم فيهم بذلك، غير أن آيات من القرآن نزلت عتاباً

لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك، وتأييداً للرأى الذى رآه عمر من قتلهم، وهى من قوله تعالى :(ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض، تريدون عرض الدنيا....................) الآيات.

العبر والعظات :

تنطوى غزوة بدر الكبرى على دروس وعظات جليلة، كما تتضمن معجزات باهرة تتعلق بتأييد الله ونصره للمؤمنين المتمسكين بمبادىء إيمانهم، المخلصين فى القيام بمسؤوليات دينهم، ونحن نجمل هذه الدلائل والدروس فيما يلى :

1- يدلنا السبب الأول لغزوة بدر أن الدافع الأصلى لخروج المسلمين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن القتال والحرب، وإنما كان الدافع قصد الإستيلاء على عير قريش القادمة من الشام تحت إشراف ابى سفيان، غير أن الله تبارك وتعالى أراد لعباده غنيمة أكبر، ونصراً أعظم، وعملاً أشرف وأكثر إنسجاماً مع الغاية التى ينبغى أن يستهدفها المسلم فى حياته كلها، فأبعد عنهم العير التى كانوا يطلبونها، وأبدلهم بها نفيراً لم يكونوا يتوقعونه وفى هذا دليل على أمرين :

الأمر الأول : أن عامة ممتلكات الحربيين تعتبر بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة، فلهم أن يستولوا عليها ويأخذوا ما إمتدت إليه أيديهم منها، وما وقع تحت يدهم من ذلك إعتبر ملكاً لهم، وهو حكم متفق عليه عند عامة الفقهاء، على أن للمهاجرين اللذين أخرجوا من ديارهم وأبنائهم فى مكة عذراً آخر فى القصد الى أخذ عير قريش والإستيلاء عليها، وهو محاولة التعويض - أو شىء من التعويض - عن ممتلكاتهم التى بقيت فى مكة واستولى عليها المشركون من ورائهم.

الأمر الثانى : أنه بالرغم من مشروعية هذا القصد، فإن الله تبارك وتعالى أراد لعباده المؤمنين قصداً أرفع من ذلك واليق بوظيفتهم التى خلقوا من أجلها، ألا وهى الدعوة الى دين الله والجهاد فى سبيل ذلك، والتضحية بالروح والمال فى سبيل إعلاء كلمة الله، ومن هنا كان النصر العظيم حليف أبى سفيان فى النجاة بتجارته، بمقدار ما كانت الهزيمة العظيمة حليف قريش فى ميدان الجهاد بينهم وبين المسلمين، وأن هذه التربية الإلهية لنفوس المسلمين لتتجلى بأبرز صورها فى قول الله تعالى(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون)

2- وعندما نتأمل كيف يجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أصحابه ليشاورهم فى الأمر الذى فوجئوا به بعد أن أفلت منهم العير وطلع عليهم النفير العظيم المدجج بالسلاح الكامل، نقف على دلالتين شرعيتين لكل منهما أهمية بالغة :

الدلالة الأولى :-إلتزامه صلى الله عليه وسلم مبدأ التشاور مع أصحابه، وإذا إستعرضنا حياته صلى الله عليه وسلم وجدنا أنه كان يلتزم هذا المبدأ فى كل أمر لا نص فيه من كلام الله تعالى، مما له علاقة بالتدبير والسياسة الشرعية، ومن أجل هذا أجمع المسلمون على أن الشورى فى كل ما لم يثبت نص ملزم فيه من كتاب الله أو سنة رسول الله أساس تشريعى دائم لا يجوز إهماله، أما ما يثبت فيه نص من الكتاب أو حديث من السنة أبرم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمه، فلا شأن للشورى فيه ولا ينبغى أن يقضى عليه بأى سلطان.

الدلالة الثانية : خضوع حالات الغزو أو المعاهدات أو الصلح بين المسلمين وغيرهم لما يسمى بالسياسة الشرعية أو ما يسميه بعضهم ب (حكم الإمام). وبيان ذلك أن مشروعية فرض الجهاد من حيث الأصل، حكم تبليغى لا يخضع لأى نسخ أو تبديل، كما أن أصل مشروعية الصلح والمعاهدات ثابت لا يجوز إبطاله أو إجتثاثه من أحكام الشريعة الإسلامية.

غير أن جزئيات الصور التطبيقية المختلفة لذلك، تخضع لظروف الزمان والمكان وحالة المسلمين وحالة أعدائهم، والميزان المحكم فى ذلك إنما هو بصيرة الإمام المتدين العادل وسياسة الحكم المتبحر فى أحكام الدين مع إخلاص فى الدين وتجرد فى القصد، الى جانب إعتماد دائم على مشاورة المسلمين والإستفادة من خبراتهم وآرائهم المختلفة.

فإذا رأى الحاكم أن من والخير للمسلمين أن لا يجابهوا اعداءهم بالحرب والقوة، وتثبت من صلاحية رأيه بالتشاور والمذاكرة فى ذلك، فله أن يجنح الى السلم معهم لا يصادم نصاً من النصوص الشرعية الثابتة، ريثما تأتى الظروف المناسبة والملائمة للقتال والجهاد، وله أن يحمل رعيته على القتال والدفع إذا ما رأى المصلحة والسياسة الشرعية السليمة فى ذلك الجانب.

وهذا ما إتفق عليه عامة الفقهاء ودلت عليه مشاهد كثيرة من سيرته صلى الله عليه وسلم اللهم إلا إذا داهم العدو المسلمين فى عقر دورهم وبلادهم، فإن عليهم دفعه بالقوة مهما كانت الظروف والوسيلة، ويعم الواجب فى ذلك المسلمين والمسلمات كافة بشرط توافر مقومات التكليف.

ثم إن الصحيح الذى إتفق عليه عامة الفقهاء أن هذه الشورى مشروعة ولكنها ليست بملزمة، أى أن على الحاكم المسلم أن يستنير فى بحثه ورأيه، ولكن ليس عليه أن يأخذ بآراء الأكثرية مثلاً لو خالفوه فى رأيه........ ويقول القرطبى فى هذا :(المستشير ينظر فى إختلاف الآراء، وينظر اقربها الى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى الى ما شاء منها عزم عليه وأنفذه متوكلاً عليه).

3- ولا شك أن الباحث ليتساءل : لماذا لم يقع جواب أبو بكر وعمر والمقداد موقعاً كافياً من نفس الرسول صلى الله عليه وسلم وظل ينظر فى وجوه القوم، حتى إذا تكلم سعد ابن معاذ إطمأن وطابت نفسه عند ذاك ؟

والجواب أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما كان يريد أن يعرف رأى الأنصار بالذات فى ذلك الأمر : ترى هل سيصدرون فى آرائهم وأحكامهم عن المعاهدة التى تمت بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام من حيث أنها معاهدة خاصة تستوجب الإلتزام بها، وإذاً فليس من حقه أن يجبرهم على القتال معه والدفاع عنه إلا فى داخل المدينة كما تنص على ذلك المعاهدة، أم سيصدرون عن مشاعرهم الإسلامية ومعاهدتهم الكبرى مع الله تعالى ؟ وإذاً فمن حق الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون الأمين فيهم على هذه المعاهدة ومن واجبهم أن يبذلوا حقوق هذه المعاهدة ويقوموا بمسئولياتها كاملة.

ولدى التأمل فيما أجاب به سعد ابن معاذ، نعلم أن المبايعة التى إرتبط بها الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة قبل الهجرة، لم تكن إلا مبايعة مع الله تعالى، ولم يكونوا يتصورون وهم يلتزمون الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما يهاجر غليهم إلا دفاعاً عن دين الله تعالى وشريعته، فليست القضية مسالة نصوص معينة إتفقوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها فهم لا يريدون أن يلتزموا بما وراءها، وإنما المسألة هى أنهم بذلك إنما وقعوا تحت صك عظيم تضمن قوله تعالى :(إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون...)، ولذلك كان جواب سعد ابن معاذ رضى الله عنه : لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق..... فامض لما أردت فنحن معك، أى فنحن نسير معك وفق معاهدة أعظم من تلك التى إتفقنا عليها معاً فى بيعة العقبة.

4- يجوز للإمام أن يستعين فى الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين، يبثهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم وليتبينوا ما هم عليه من قوة فى العدة والعدد، ويجوز إتخاذ مختلف الوسائل لذلك، بشرط أن لا تنطوى الوسيلة على الإضرار بمصلحة هى أهم من مصلحة الإطلاع على حال العدو، وربما إستلزمت الوسيلة تكتماً أو نوعاً من المخادعة أو التحايل، وكل ذلك مشروع وحسن من حيث أنه واسطة لا بد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم.

وقد جاء فى كتب السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل قريباً من بدر، ركب هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله النبى صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم. فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبرانى ممن

أنتما، فقال عليه الصلاة والسلام : إذا أخبرتنا أخبرناك، فقال أذاك بذاك ظ قال :نعم، فأخبره الشيخ بما يعلم من أمر المشركين وبما قد سمعه من أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حتى إذا فرغ من كلامه قال : فممن أنتما ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نحن من ماء، ثم إنصرف عنه، فأخذ الشيخ يقول : ما من ماء ؟ أمن ماء العراق؟.

5- أقسام تصرفاته صلى الله عليه وسلم :

ويدلنا الحديث الذى جرى بين الرسول صلى الله عليه وسلم والحباب ابن المنذر فى شأن المكان الذى نزل فيه (وهو حديث صحيح الإسناد كما رأيت) أن تصرفات النبى صلى الله عليه وسلم ليست كلها من نوع التشريع، بل هو فى كثير من الأحيان يتصرف من حيث إنه بشر من الناس يفكر ويدبر كما يفكر غيره، ولا ريب أننا لسنا ملزمين بإتباعه فى مثل هذه التصرفات فمن ذلك نزوله صلى الله عليه وسلم فى المكان الذى إختاره فى هذه الغزوة، فقد وجدنا كيف أن الحباب أشار بالتحول عنه الى غيره ووافقه عليه النبى صلى الله عليه وسلم، وذلك بعد أن إستوثق الحباب رضى الله عنه أن إختيار النبى صلى الله عليه وسلم لذلك المكان ليس بوحى من عند الله ومن ذلك كثير من تصرفاته التى تدخل تحت السياسة الشرعية والتى يتصرف فيها النبى صلى الله عليه وسلم من حيث أنه إمام ورئيس دولة لا من حيث انه نبى ورسول يبلغ عن الله تعالى، مثل كثير من عطاءاته وتدابيره العسكرية، وللفقهاء تفصيل واسع فى هذا البحث لامجال لعرضه فى هذا المقام.

6- أهمية التضرع الى الله تعالى وشدة الإستعانة به :

لقد رأينا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطمئن أصحابه بأن النصر لهم، حتى أنه كان يشير الى أماكن متفرقة من الأرض ويقول : هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، ولقد وقع الأمر كما أخبر عليه الصلاة والسلام، فما تزحزح أحد فى مقتله عن موضع يده كما ورد فى الحديث الصحيح.

ومع ذلك فقد رأيناه يقف طوال ليلة الجمعة فى العريش الذى أقيم له يجأر إلى الله تعالى داعياً متضرعاً، باسطاً كفيه الى السماء يناشد الله عز وجل أن يؤتيه نصره الذى وعد حتى سقط عنه رداؤه وأشفق عليه أبو بكر الصديق، والتزمه قائلا : كفى يا رسول الله، إن الله منجز لك ما وعد، فلماذا كل هذه الضراعة ما دام أنه مطمئن الى درجة أنه قال : لكأنى أنظر الى مصارع القوم، وأنه حدد مصارع بعضهم على الأرض ؟

والجواب : أن إطمئنان النبى صلى الله عليه وسلم وإيمانه بالنصر، إنما كان تصديقاً منه للوعد الذى وعد الله به رسوله، ولا شك ان الله لا يخلف الميعاد، وربما أوحى إليه خبر النصر فى تلك الموقعة.
أما الإستغراق فى التضرع والدعاء وبسط الكف الى السماء، فتلك هى وظيفة العبودية التى خلق من أجلها أفنسان، وذلك هو ثمن النصر فى كل حال.

فما النصر- مهما توافرت الوسائل والأسباب - إلا من عند الله تعالى وبتوفيقه، والله عز وجل لا يريد منا إلا أن نكون عبيداً له بالطبع والإختيار، وما تقرب متقرب الى الله بصف أعظم من صفة العبودية،وما إستأهل إنسان بواسطة من الوسائط إستجابة دعاء من الله تعالى، كمن إستأهل ذلك بواسطة ذل العبودية يتزىّ ويتبرقع به بين يدى الله تعالى.

وما كل أنواع المصائب والمحن المختلفة التى تهدد الإنسان فى هذه الحياة أو تنزل به، إلا أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته، وتصرف آماله وفكره الى عظمة الله سبحانه وتعالى وباهر قدرته، كى يفر إليه سبحانه وتعالى ويبسط أمامه ضعفه وعبوديته، ويستجير به من كل فتنة وبلاء، وإذا إستيقظ الإنسان فى حياته لهذه الحقيقة وانصبغ سلوكه بها، فقد وصل الى الحد الذى أمر الله عباده جميعاً أن يقفوا عنده وينتهوا إليه.

فهذه العبودية التى إتخذت مظهرها الرائع فى طول دعاء النبى صلى الله عليه وسلم وشدة ضراعته ومناشدته لربه أن يؤتيه النصر، هى الثمن الذى إستحق به ذلك التاييد الإلهى العظيم فى تلك المعركة، وقد نصت على ذلك الآية الكريمة إذ تقول :(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين)، ويقينا منه صلى الله عليه وسلم بهذه العبودية لله عز وجل، كان واثقاً بالنصر مطمئناً الى أن العاقبة للمسلمين، ثم قارن مظهر هذه العبودية التى تجلت فى موقفه صلى الله عليه وسلم ونتائج ذلك، مع مظهر ذلك الطغيان والتجبر الذى تجلى فى موقف أبي جهل حينما قال : لن نرجع حتى نرد ماء بدر فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا، ونتائج ذلك التجبر والجبروت... !

لقد كانت نتيجة العبودية والخضوع لله تعالى عزة قعساء ومجداً شامخاً خضع لهما جبين الدنيا باسرها، ولقد كانت نتيجة الطغيان والجبروت الزائفين قبراً من الضيعة والهوان أقيم لأربابهما حيث كانوا سيتساقون فيه الخمر وتعزف عليهم القيان، وتلك هى سنة اله فى الكون كلما تلاقت العبوديةلله حالصة مع جبروت وطغيان زائفين.

7- الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر :

إنطوت بدر على معجزة من أعظم معجزات التأييد والنصر للمسلمين الصادقين، فقد أمدّ الله المسلمين فيها بملائكة يقاتلون معهم، وهذه حقيقة ثبتت بدلالة صريحة من الكتاب والسنة الصحيحة، روى ابن هشام أن النبى صلى اله عليه وسلم خفق خفقة فى العريش ثم إنتبه فقال :(أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على النقع) ورواه البخارى أيضاً بلفظ قريب منه.

ومن أوضح الأدلة القاطعة على أن التعبير بالملائكة فى بيان الله عز وجل ليس المقصود به ما يتوهمه البعض من المدد الروحى أو القوة المعنوية أو نحو ذلك - أقول من أوضح الأدلة القاطعة على بطلان هذا الوهم، ضبط البيان الإلهى الملائكة بعدد محدود وهو الألف، فى قوله تعالى :(فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) إذ العدد من مستلزمات الكم المنفصل فى الأشياء، ولا يكون ذلك إلا فى الأشياء المادية المحسوسة.

ومن هنا نعلم أن تقييد ا لبيان الإلهى الملائكة بعدد معين ينطوى على حكم باهرة من أجلها قطع السبيل على من يريد تناول الآية، ويفسر الملائكة بالمعنى الذى يروق له وهو مجرد الدعم المعنوى.

ثم إن نزول الملائكة للقتال مع المسلمين، إنما هو مجرد تطمين لقلوبهم، واستجابة حسية لشدة إستغاثتهم إقتضاها أنهم يقفون مع أول تجربة قتال فى سبيل الله، لأناس يبلغون ثلاثة أضعافهم فى العدة والعدد،وإلا فإن النصر من عند الله وحده، وليس للملائكة أى تأثير ذاتى فى ذلك، ومن أجل بيان هذه الحقيقة قال الله تعالى معللا نزول الملائكة :(وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم).

8- الحياة البرزخية للأموات :

فى وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم على فم القليب ينادى قتلى المشركين ويكلمهم بعدما ماتوا، وفيما قاله لعمر رضى الله عنه إذ ذاك، دليل واضح على أن للميت حياة روحية خاصة به، لا ندرى حقيقتها ولا كيفيتها، وأن أرواح الموتى تظل حائمة حول أجسادهم، ومن هنا يتصور معنى عذاب القبر ونعيمه، غير أن ذلك كله إنما يخضع لموازين لا تنضبط بعقولنا وإدراكاتنا النيوية هذه، إذ هو مما يسمى بعالم الملكوت البعيد عن مشاهداتنا وتجاربنا العقلية والمادية، فطريق الإيمان بها إنما هو التسليم لها بعد أن تصلنا بطريق ثابت صحيح.

9- ثم إن مسألة الأسرى ومشاورة الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأنهم، وما أعقبه من حكم إفتدائهم بالمال ثم نزول آيات تعتب على النبى صلى اله عليه وسلم وعلى أصحابه إتخاذ مثل ذلك الحكم - نقول إن هذه المسالة لها دلالات مختلفة هامة :

أولا :_ الأسرى واجتهاد الرسول، دلتنا هذه الواقعة على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له أن يجتهد، والذين ذهبوا الى هذا - وهم جمهور علماء الأصول - إستدلوا على ذلك بمسألة أسرى بدر، وإذا صح للرسول صلى الله عليه وسلم أن يجتهد، صح منه بناءاً على ذلك أن يخطىء فى الإجتهاد ويصيب، غير أن الخطأ لا يستمر، بل لابد أن تنزل آية من القرآن تصحح له إجتهاده، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن إجتهاده صلى الله عليه وسلم قد وقع على ما هو الحق فى علم الله تعالى.

ثانياً:- كما أن غزوة بدر هى أول تجربة للمسلمين فى التضحية والقتال فى سبيل الله تعالى وهم على ما كانوا عليه من الضعف والقلة، فكذلك هى أول تجربة لهم فى رؤية الغنائم والأموال أمامهم فى أعقاب المعركة، وهم على ما كانوا عليه من الفقر والحاجة، وقد عالجت الحكمة الإلهية تجربة القتال مع الضعف بأن ثبّت الله قلوبهم وطمأن نفوسهم - كما ذكرنا - بالخوارق الدالة على النصر.
ثم عالجت الحكمة الإلهية تجربة رؤية الغنائم والأموال مع الحاجة والفقر، بوسائل تربوية دقيقة، جاءت فى وقتها المناسب، وقد تجلى أثر هذه التجربة فى مشهدين على أعقاب هذه الغزوة :

أما المشهد الأول : فحينما إنهزم المشركون وتركوا وراءهم أموالهم المختلفة، فقد تسابق بعض المسلمين إليها واختلفوا مع بعضهم فى كيفية إستحقاقهم لها وكادوا يشتجرون على ذلك، ولم يكن قد نزل بعد حكم توزيع الغنائم بين المقاتلين فراحوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم وينهون إليه خصومتهم فى الأمر وعندئذ نزل قول الله تعالى :(يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا اله ورسوله إن كنتم مؤمنين، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر اله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون).

فأنت ترى أن الآيتين لا تنطويان على جواب عن سؤالهم، بل فيهما صرف لهم عن الموضوع كله، لأن الأنفال ليست لأحد منهم، بل هى لله والرسول، أما هم فعليهم إصلاح هذا الشقاق الذى وقع بينهم وإطاعة اله فى أوامره واجتناب نواهيه، فتلك هى وظيفتهم، أما المال والدنيا، فليعتمدوا فيهما على الله تعالى، فلما ثاب هؤلاء المسلمون الى هدى هاتين الآيتين وصرفوا النظر عما إشتجروا من أجله نزلت آيات أخرى تقرر كيفية تقسيم الغنائم بين المقاتلين على إختلافهم، وهذه من أبرع الوسائل التربوية الدقيقة كما ترى.

وأما المشهد الثانى : فهو عندما تشاور الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فى شأن الأسرى فقد سكنت نفوسهم إلى إفتدائهم بالمال، وقد كانت الملاحظة فى ذلك هى الجمع بين الرحمة والرفق بالأسرى، عسى أن يرعووا ويؤمنوا بالله، والعويض عما فات المهاجرين من أموالهم التى تركوها فى مكة عسى أن يقع موقعاً لديهم ويساعدهم على إصلاح شؤون دنياهم، وهذا الرأى الذى سكنت إليه نفس النبى صلى الله عليه وسلم يدل على مدى شفقته على أصحابه، وهذه الشفقة هى التى جعلت يده ترتفع بالدعاء للمهاجرين لما رآهم لدى خروجهم الى بدر، وأن علائم الحاجة والفقر بادية عليهم قائلاً :
(اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم وإنهم جياع فأشبعهم).

ولكن الخكمة الإلهية لم ترد للمسلمين أن يجعلوا من النظرة الى المال ميزاناً أو جزء ميزان للحكم فى قضاياهم الكبرى التى قامت على أساس النظرة الدينية وحدها مهما كانت الحال والظروف، إذ يوشك لو تركوا هذه النظرة وهم أمام أول تجربة من هذا النوع أن يجرى ذلك مجرى القاعدة المطّردة فتستولى النظرة المادية على مثل هذه الأحكام التى ينبغى أن تظل متسامية فى علياء لا يطولها شىء من أغراض الدنيا على إختلافها، ومن الصعب لمن سار وراء الدنيا أشواطاً واستطاب مذاقها أن يرتد عنها ويفطم نفسه عن مذاقها.

روى مسلم عن عمر ابن الخطاب أنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن قضى بإفتداء الأسرى فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقلت يا رسول الله : أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله لعيه وسلم أبكى للذى عرض علىّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من النبى صلى الله عليه وسلم) وأنزل الله عز وجل :(ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) الى قوله (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً).

شكوى الرسول صلى الله عليه وسلم - ولحاقــه بالرفيق الأعلــى

بعث أسامة ابن زيد الى البلقاء :

ما إن عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة حتى أمر المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم، واختار رسول الله صلى الله عليه وسلم لإمرة هذه الغزوة أسامة ابن زيد رضى الله عنه، وكان رضى الله عنه شاباً حدثاً، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يسير الى موضع مقتل أبيه زيد ابن حارثة، وأن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، ذولك مع بدء شكواه صلى الله عليه وسلم من مرضه الذى توفى فيه ولكن المنافقين راحوا يقولون مستنكرين : أمّر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين والأنصار، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس وقد عصب رأسه وخطب فيهم قائلاً : (إن تطعنوا فى إمارة أسامة ابن زيد فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبله، وأيم الله إن كان لخليقاً بها، وأيم الله إن كان لأحب الناس الىّ، وأيم الله إن هذا لها لخليق - يريد أسامة ابن زيد - وأيم الله إن كان لأحبهم الى من بعده فأوصيكم به فإنه من صالحيكم)، فتجهز الناس، وأوعب مع أسامة المهاجرين والأنصار، وخرج أسامة بجيشه الى ظاهر المدينة، فعسكر بالجرف (مكان على بعد فرسخ من المدينة).

شكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وفى هذه الأثناء اشتدت برسول الله صلى الله عليه وسلم شكواه التى قبضه الله فيها، فأقام الجيش هناك، ينظرون ما الله قاض فى هذا الأمر.

وكان إبتداء شكواه ما رواه ابن اسحاق وابن سعد عن أبى مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل فقال : يا أبا مويهبة، قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معى، فانطلقت معه، فلما وقفنا عليهم قال : السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن مثل قطع الليل المظلم يتبع آخرها أولاها، الآخرة شر من الأولى، ثم أقبل علىّ فقال : إنى قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة فقلت : بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا وتخلّد فيها، ثم الجنة، قال : لا والله أبا مويهبة، قد إخترت لقاء ربى والجنة، ثم استغفر لأهل البقيع ثم إنصرف فابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه الذى قبض فيه.

وكان أول وجعه صلى الله عليه وسلم صداعاً شديداً يجده فى رأسه، فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من البقيع استقبلته وهى تقول : وا رأساه فقال لها صلى الله عليه وسلم : بل أنا والله يا عائشة وا رأساه. ثم ثقل عليه الوجع فكان حمى شديدة تنتابه، وكان بدء ذلك فى أواخر صفر من السنة الحادية عشر للهجرة وكانت عائشة ترقيه صلى الله عليه وسلم خلال ذلك بمعوذات القرآن.

روى البخارى ومسلم عن عروة أن عائشة رضى الله عنها أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذى توفى فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التى كان ينفث وأمسح بيد النبى صلى الله عليه وسلم عنه.

وشعرت نساؤه صلى الله عليه وسلم برغبته فى أن يمرض فى بيت عائشة رضى الله عنها لما يعلمن من محبته لها وارتياحه إليها، فأذنّ له فى ذلك، فخرج الى بيتها من عند ميمونة يتوكأ على الفضل ابن عباس وعلى ابن أبطالب رضى الله عنهما.

وفى بيت عائشة رضى الله عنها اشتد به وجعه، وكان قد شعر بقلق أصحابه وحزنهم عليه، فقال : أهريقوا علىّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهنّ لعلى أعهد الى الناس (أى أخرج إليهم لأكلمهم) قالت عائشة رضى الله عنها : فأجلسناه فى مخضب (ما يشبه الإجّانة يغسل فيها الثياب) ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتنّ، ثم خرج الى الناس فصلى بهم وخطبهم، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه، فجلس على المنبر ثم كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ثم قال: (عبد خير بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده) فبكى أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذ علم ما يقصده النبى صلى الله عليه وسلم وناداه قائلاً : فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فقال صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا أبا بكر، أيها الناس إنّ آمن الناس علىّ فى ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام. لا تبقين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبا بكر، وإنى فرط لكم، وأنا شهيد عليكم وإنى والله لأنظر الى حوضى الآن، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإنى والله ما أخاف أن تشركوا من بعدى ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها).

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته، وما هو إلا أن اشتد به وجعه، وثقل عليه مرضه.
روت عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه ادعى لى أبا بكر أباك وأخاك، حتى أكتب كتاباً، فإنى أخاف أن يتمنى متمنّ ويقول قائل : أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر.

وروى ابن عباس رضى الله عنه قال : لما اشتد المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لرجال كانوا فى البيت : هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده فقال بعضهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والإختلاف قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا.

ولم يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق الخروج الى الصلاة مع الناس، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله، إن أبا بكر رجل اسيف (رقيق) وأنه إذا قام مقامك لم يكد يسمع الناس، فقال : إنكن صواحب يوسف، مروا أبابكر فليصل بالناس.
فكان أبو بكر هو الذى يصلى بالناس بعد ذلك، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم خلال ذلك مرة - وقد شعر بخفة - فأتى فوجد أبا بكر وهو قائم يصلى بالناس فاستأخر أبو بكر، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كما أنت، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنب أبى بكر فكان أبو بكر يصلى بصلاة رسول الله صلى الله عليسه وسلم وهو جالس، وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر.
واستبشر الناس خيراً بخروجه صلى الله عليه وسلم إذ ذاك، ولكن البرحاء اشتدت عليه، وكان ذلك آخر مرة خرج يصلى فيها مع الناس. روى ابن مسعود رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوعك، فمسسته بيدى، فقلت يا رسول الله، إنك لتوعك وعكاً شديداً، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم قال فقلت : ذلك أن لك أجرين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل، مامن مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة وراقها.
وكان صلى الله عليه وسلم أثناء ذلك يطرح خميصة (غطاء) له على وجهه، فإذا اغتم وضايقه الألم كشفها عن وجهه فقال : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، كأنه صلى الله عليه وسلم يحذر من أن يصنعوا صنيعهم به.

رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكرة الموت

وذلك هو حكم الله فى عباده كلهم (إنك ميت وإنهم ميتون) فقد دخل فجر يوم الإثنين ثانى عشر ربيع الأول من العام الحادى عشر للهجرة، وبينما الناس فى المسجد يصلون خلف أبي بكر رضى الله عنه، إذا بالستر المضروب على حجرة عائشة قد كشف، وبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه، فنظر إليهم وهم فى صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف، فقد ظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يخرج الى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليهم أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر، وانصرف الناس من صلاتهم وهم يحسبون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نشط من مرضه، ولكن تبين أنها كانت نظرة وداع منه صلى الله عليه وسلم الى أصحابه، فقد عاد عليه الصلاة والسلام فاضطجع الى حجر عائشة رضى الله عنها، وأسندت رضى الله عنها رأسه الى صدرها، وجعلت تتغشاه سكرة الموت، قالت : وكان بين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء ويمسح بها وجهه ويقول : لا إله إلا الله إن للموت لسكرات، وكانت فاطمة رضى الله عنها إذا رأت منه ذلك قالت : واكرب أباه !.. يفقول لها عليه الصلاة والسلام : ليس على أبيك كرب بعد هذا اليوم.

قالت عائشة رضى الله عنها : إن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته، دخل علىّ عبد الرحمن وبيده السواك وانا مسندة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك، فأشار برأسه أن نعم، فقلت ألينه لك ؟ فأشار برأسه أ، نعم، فلينته فأمره، وبين يديه ركوة فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح وجهه ويقول : لا إله إلا الله إن للموت سكرات، ثم نصب يده فجعل يقول : فى الرفيق الأعلى، حتى قبض ومالت يده.

وانتشر خبر وفاته صلى الله عليه وسلم فى الناس، وأقبل أبو بكر رضى الله عنه على فرس من مسكنه فى السنح (وكان قد ذهب الى منزله هناك آملاً أنه صلى الله عليه وسلم قد عوفى من وجعه) حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله وبكى، فقال : بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها، ثم خرج رضى الله عنه، وعمر يكلم الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى ابن عمران وأنه صلى الله عليه وسلم لا يموت حتى يفنى الله المنافقين، فأقبل أبو بكر يقول له : على رسلك يا عمر، أنصت ولكنه استمر فى كلامه مهتاجاً، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس فأقبلوا إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، قال الله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل إنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) الآية فكأن الناس لم يعلموا أن الله نزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا وأخذ يتلوها، قال عمر رضى الله عنه : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها معقرت ما تقلنى رجلاى وحتى أهويت الى الأرض حين سمعته تلاها أن النبى صلى الله عليه وسلم قد مات.

وقد أجمع الرواة وأهل العلم أنه صلى الله عليه وسلم توفى عن ثلاثة وستين عاما من العمر، قضى أربعين منها قبل البعثة، وثلاثة عشر عاما يدعو الى الله فى مكة وعشر سنين قضاها فى المدينة بعد الهجرة، وكانت وفاته فى أول العام الحادى عشر.

وروى البخارى عن عمرو ابن الحرث قال : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة.

العبر والعظات :

فى أحداث هذا القسم الأخير من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم تلوح قصة الحقيقة الكبرى فى هذا الوجود !.. الحقيقة التى يسقط عندها جبروت المتجبرين وعناد الملحدين، وطغيان البغاة والمتألهين، إنها الحقيقة التى تمتد صفحة هذا الوجود المائج كله بغاشية الإنتهاء والفناء، وتصبغ الحياة البشرية بصبغة العبودية والذل لقهار السموات والأرض حقيقة تسربل بها (طوعاً أو كرها)

العصاة والطائعون، والرؤساء والمتألهون، والرسل والأنبياء والمقربون والأصفياء، والفقراء ودعاة العلم والإختراع !.. إنها الحقيقة التى تعلن على مدى الزمان والمكان، وفى أذن كل سامع وعقل مفكر : أن لا ألوهية إلا لله وحده، وأن لا حاكمية إلا لذاك الذى تفرد بالبقاء، فهو الذى لا مرد لقضائه ولا حدود لسلطانه ولا مخرج عن حكمه ولا غالب على أمره. أى حقيقة تنطق بهذه الدلالة نطقاً لا لبس فيه ولا غموض أعظم من حقيقة الموت وسكرة الموت إذ قهر الله بهما سكان الدنيا كلها منذ فجر الوجود الى أن تغيب شمسه ، لقد مر فى معبر الدنيا كثير من أولئك المغترين الذين غرقوا فى شبر من القوة التى أوتوها، او العلوم التى فهموها، أو المخترعات التى إكتشفوها، ولكن هذه الحقيقة الكبرى سرعان ما إنتشلتهم وألقت بهم فى بيداء العبودية وأيقظتهم الى صحو التذلل لقيوم السموات والأرض مالك الملك كله، فقدموا الى الله عبيداً أذلاء خاضعين. كل نفس ذائقة الموت !.....

إطلاق لا قيد فيه ، عموم لا مخصص له، وشمول ليس للدنيا كلها أن تجعل له حداً، فليأت دعاة العلم الجديد، والرقى الحديث ومتوثبوا الغزو الفضائى فليجمعوا أمرهم وليضفروا جميع إمكاناتهم المختلفة وليحشدوا كل أقمارهم المصنوعة ومراكبهم المشروعة فليستعينوا بذلك كله على أن يزيحوا عن أنفسهم شيئاً من سلطان هذا الموت الذى قهرهم واستذلهم، وليبطلوا بذلك ولو جزء من هذا التحدى الإلهى : كل نفس ذائقة الموت، فإن فعلوا ذلك فإن لهم حينئذ أن يشيدوا لأنفسهم صروحاً عالية من الجبروت والطغيان والتأله والكفران،وإلا فأحرى بهم أن يتفرغوا للتأمل فى تلك القبور التى سيغسيبون فى أحشائها والتربة التى سيمتدون تحتها، وفى القبضة التى سوف لن ينجوا من حكمها.

ولقد كان من اليسير على الله عز وجل أن يجعل مرتبة رسوله صلى الله عليه وسلم فوق مستوى الموت وآلامه، ولكن الحكمة الإلهية شاءت أن يكون قضاء الله تعالى فى تجرع كأس الموت وآلامها عاماً لكل أحد مهما كانت درجة قربه من الله جل جلاله، حتى يعيش الناس على معنى التوحيد وحقيقته، وحتى يدركوا جيداً أن كل من فالسموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا، فليس لأحد أن يتمطى ليعلو بنفسه على مستوى العبودية بعد أن عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم خاضعاً لحكمها ونزل به قضاؤها وليس لأحد أن لا يكثر من ذكر الموت وسكرته بعد أن عانى حبيب الله تعالى من برحائه وغشيته آلامها، وهذا المعنى هو ما أوضحه كلام الله جل جلاله :(إنك ميت وإنهم ميتون) وقوله تعالى :(وما جعلنا لأحد من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ؟! كل نفس ذائقةالموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)وإذاً فنحن فى هذا القسم الأخير من سيرته عليه الصلاة والسلام أمام مشهد لحقيقتين هما دعامتا الإيمان بالله عز وجل، بل هما دعامتا الحقيقة الكونية كلها : حقيقة توحيد الله عز وجل، وحقيقة العبودية الشاملة التى فطر الله الناس كلهم عليها ولا تبديل لحكم الله وأمره.

والآن فلنستعرض ما يوجد فى ثنايا هذا البحث من الدروس والأحكام :

أولاً:- لا مفاضلة فى حكم الإسلام إلا بالعمل الصالح :

فقد كان زيد ابن حارثة رقيقاً وهو والد أسامة هذا، وهو فى أصله مولى، وكان أسامة كما قلنا فتى صغيراً بين الثامنة عشر والعشرين من العمر، ومع ذلك فلا الصغر ولا الرق القديم منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يجعله أميراً على عامة الصحابة فى غزوة مهمة كبرى !.. ولئن وجد المنافقون فى هذا مثاراً للتعجب أو الإستنكار، فإن شريعة الإسلام لالا تستغرب ذلك ولا تستنكره، فما جاء الإسلام إلا ليحطم مقاييس الجاهلية التى كانوا يتفاضلون بها ويتفاوتون، ولعل النبى صلى الله عليه وسلم وجد فى أسامة ميزة جعلته أولى من غيره بإمارة الجيش فى هذه الغزوة، وليس على المسلمين فى هذه الحال إلا السمع والطاعة وإن أمر عليهم عبد حبشى، ولذلك كان أول عمل قام به أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خلافته هو إنفاذ جيش أسامة، وخرج رضى الله عنه فشيع جيشه بنفسه ماشياً وأسامة راكباً، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلنّ، فقال أبو بكر : والله لا نزلت ولا ركبت، وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ؟ ولقد رجع أسامة رضى الله عنه من هذه الغزوة منصوراً ظافراً وكان فى تسيير ذلك الجيش نفع عظيم للمسلمين.

ثانياً:- مشروعية الرقية وفضلها :

وهى العويذ، ودليل ذلك ما رويناه من حديث البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده... الخ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يرقى أصحابه بالقرآن آناً، وبالأذكار والأدعية الأخرى، روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه ثم قال : أذهب الباس رب الناس، واشف أنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً، وروى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرا على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها، ومن أوضح الأدلة على مشروعية الرقية بالقرآن الكريم قوله تعالى :(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً).

والفرق بين الدعاء والرقية، أن الرقية تزيد عليه المسح باليد والنفث بالفم، وهو النفخ بدون ريق فى الأصح. ثم إنه ذهب مالك والشافعى وأحمد واسحاق وأبو ثور الى جواز أخذ الأجر على الرقية، وفصل أبو حنيفة فمنعها على تعليم القرآن وأجازها على الرقية ودليل ذلك حديث البخارى ومسلم أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا فى سفر، فمروا بحى من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يضيفوهم، فقالوا لهم هل فيكم راقٍ، فإن سيد الحى لديغ أو مصاب، فقال رجل منهم نعم، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب، فشفى الرجل فأعطى قطيعاً من غنم فأبى أن يقبلها، وقال : حتى أذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال : يا رسول الله، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم وقال: وما أدراك أنها رقية ؟ ثم قال : خذوا منهم واضربوا لى بسهم معكم، وقد نقل النووى والحافظ ابن حجر وغيرهما الإجماع على مشروعية الرقى عند إجتماع ثلاثة شروط :

أن يكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته، وأن يكون باللسان العربى أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى.

وقد دلت على هذه الشروط أحاديث صحيحة مثل ما رواه مسلم عن عوف ابن مالك الأشجعى قال : كنا نرقى فى الجاهلية، فقلنا يا رسول الله كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : اعرضوا علىّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك .

السحر والرقية منه :

ولقد كان من أهم ما رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه بالمعوذات منه، السحر الذى سحره به لبيد ابن عاصم فى الحديث الذى رواه الشيخان، ولقد ذكر العلماء أن جمهور المسلمين على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة، ودليله هذا الحديث، وذكر اله تعالى له فى كتابه، وأنه مما يعلم وذلك لا يكون إلا فيما له حقيقة ما، وقوله سبحانه وتعالى عنه :(فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) والتفريق بين المرء وزوجه شىء حقيقى كما هو معروف .

وقد يستشكل بعضهم هذا الذى نقول لسببين :

الأول - كون السحر بحد ذاته حقيقة ثابتة، إذ هو فيما يتوهمه البعض أمر مناف لقضية التوحيد وانحصار التأثير لله وحده.

الثانى - أن يقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سحر، فذلك مما يحط فى أوهامهممن منصب النبوة ويشكك الناس فيها.

و الحقيقة أنه لا إشكال فى الأمر البتة، أما الجواب عن الوهم الأول : فهو أن إعتبار السحر حقيقة ثابتة لا يعنى كونه مؤثراً بذاته بل هو كقولنا السم له مفعول حقيقى ثابت، والدواء له مفعول حقيقى ثابت، فهذا كلام صحيح لا ينكر، غير أن التأثير فى الأمور الثابتة إنما هو لله تعالى، وقد قال الله تعالى عن السحر (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) فقد نفى الله عز وجل عن السحر التأثير الذاتى ولكنه أثبت له فى نفس الوقت مفعولاً ونتيجة منوطة بإذن الله تعالى.

وأما الجواب عن الوهم الثانى : فهو أن السحر الذى أصيب به رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان متسلطاً على جسده وظواهر جوارحه كما هو معروف، لا على عقله وقلبه واعتقاده، فمعاناته من آثار أى مرض من الأمراض التى يتعرض لها الجسم البشرى لأى كان، ومعلوم أن عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تستلزم سلامته من الأمراض والأغراض البشرية المختلفة.

قال القاضى عياض : وأما ما جاء فى الحديث من أنه صلى الله عليه وسلم كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله، فليس فى هذا ما يدخل عليه صلى الله عليه وسلم داخلة نقص أو عيب فى شىء من تبليغه أو شريعته، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا (أى مما يدخل داخلة نقص فى تبليغ الشريعة) وإنما هذا فيما يجوز طروّه من أمور الدنيا التى لم يبعث بسببها ولا فضل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمورها مالا حقيقة له ثم ينجلى عنه كما حصل.
قلت : وهو كما حصل للمريض عند شدة الحمى، فمن الأعراض الطبيعية لذلك أن تطوف بالذهن أخيلة وأوهام غير حقيقية لشدة وطأة الحرارة، والأمر فى ذلك وأشباهه من الأعراض البشرية التى يستوى فيها الأنبياء والرسل مع غيرهم من الناس.

على أن خبر سحره صلى الله عليه وسلم إنما يدخل فى جملة الخوارق التى أكرمه الله تعالى بها فهو ليس مثار نقيصة له، وإنما هو دليل إكرام الله تعالى له وحفظه إياه، فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وظل يكثر من الدعاء حين شعر بهذه الأعراض فى جسمه الى ان أطلعه الله على المكيدة التى صنعها له لبيد ابن الأعصم فى السر، فذهب الى حيث كان قد طوى الرجل أمشاطه وأسباب سحره فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك وإليك نص الحديث :

روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه كان يفعل الشىء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندى، لكنه دعا ودعا، ثم قال يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه، أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى، فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب (أى مسحور) قال : من طبه : قال : لبيد ابن الأعصم، قال : فى أى شىء ؟ قال : فى مشط ومشاطة وجف طلع نخل ذكر، قال : وأين هو ؟ قال : فى بئر ذروان، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس من أصحابه... فجاء فقال : يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين !.. قلت يا رسول الله : أفلا أستخرجه، قال : لقد عافانى الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً، فأمر بها (أى البئر) فدفنت.

فأنت ترى أن هذا الحديث دليل إكرام وعصمة من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أكثر من كونه دليل أذى قد أصابه فى جسمه أو أى جانب يتعلق ببشريته.

بقى أن أحداً قد يستشكل قائلاً : فكيف تتميز المعجزة الإلهية إذاً عن السحر ومظاهره ما دام أن له حقيقة ؟

والجواب أن المعجزة التى تحصل على يد النبى إنما تكون مقترنة بدعوى النبوة والتحدى بها كدليل على صدق دعواه، وليس السحر كذلك، فلا يمكن أن يتم على يد الساحر مع دعوى أنه نبى، هذا إلا أن سلطان السحر محدود، فهو وإن كان له حقيقة كما قلنا، غير أن حقيقته لا تتجاوز حدوداً معينة، ولا يمكن التوصل به الى قلب الحقائق وتبديل جاهر الشياء، ولذلك عبر الله سبحانه وتعالى عن السحر الذى صنعه سحرة فرعون بقوله :(فألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى).
فعبر عما رآه موسى من صنيعهم بالخيال، أى فالحبال لم تنقلب فالحقيقة الى ثعابين بسحرهم الذى فعلوه،وإنما الذى إتجه إليه السحر هو أبصار المشاهدين فقط، فهى التى سحرت لا الحبال والعصى، وهذا ما أوضحته الآية الأخرى وهى قوله تعالى :(سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم)، وإذا تأملت فى هذا الذى نقول، علمت أنه لا تنافى بين ما ذكرناه من أن السحر حقيقة ثابتة، وقول الله تعالى (يخيل إليهمن سحرهم أنه تسعى) إذ أن إنقلاب الحبال ثعابين تسعى خيال، أما تأثير العين بهذا الخيال وضعفها عن رؤية الحقيقة فذلك هو مفعول السحر وحقيقته لما أصاب العين هذا الذى أصابها، وهذا التحقيق يؤكد لك أن مناط السحر دائماً هو جسم الإنسان أو حواسه وجوارحه، تظهر بسببه بعض المرئيات أو المحسوسات على غير حقيقتها.

ثالثاً : مظاهر فضل أبى بكر رضى الله عنه :

وفيما أسلفناه من قصة مرضه صلى الله عليه وسلم أربع دلائل على أن أبا بكر رضى الله عنه من المزية والفضل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الأولى :- حينما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطابه بقوله :(عبد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده) فقد ادرك أبو بكر ما يعنيه صلى الله عليه وسلم ولذلك الذى استشعره رضى الله عنه من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد جاء فى بعض طرق هذا الحديث عن أبى سعيد الخدرى أنه لما بكى أبو بكر لقول الرسول صلى الله عليه وسلم قلت فى نفسى : ما يبكى هذا الشيخ أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا عن عبد خيّر فاختار ؟ قال : فكان رسول اله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به.

الثانية :- قوله عليه الصلاة والسلام : إن آمن الناس علىّ فى ماله وصحبته أبو بكر.... الحديث، وإنها لكلمات خالدات ما سجل مثلها لغير أبى بكر رضى الله عنه.

الثالثة :- ما ذكرناه من رواية مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : أدعى لى أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً فإنى أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل : أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أن يكون أبا بكر. وإن هذا الحديث ليعبر بمثابة النص على استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم له من بعده، ولئن كانت الحكمة الإلهية اقتضت أن لا يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على اصحابه عهداً بذلك وأن لا يسجل لهم كتاباً به، فكل ذلك كى لا يصبح توارث الحكم والخلافة متبعة من بعده، وفى ذلك من مفسدة القضاء على إتباع شروط الصلاح فى الحاكم ما هو غير خاف على أحد .

الرابعة:- استخلافه رضى الله عنه للصلاة بالناس فى مكانه، ولقد رأيت مدى شدته فى تعيين أبى بكر لذلك ورده الشديد على عائشة رضى الله عنها فيما راجعته به.

ولئن كنا نقول أن هذه المزايا الثابتة فى صحاح الأحاديث لأبى بكر رضى الله عنه هى التى رجحت مبايعة المسلمين له بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا لا يغض من خصائص ةميز الصحابة والخلفاء الاخرين خصوصاً علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه، فقد رأيت أنه صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر قال : لأعطينهذه الراية غداً لرجل يحبه الله ورسوله، فذهب الناس يتساءلون فى تلك الليلة من سيكون صاحب الراية، فكان صاحبها هو علىّ رضى الله عنه.ولقد إنتهى أمر الخلافة وأبرم المسلمون الحكم فيها عقب وفاته صلى الله عليه وسلم دون أن يستلزم ذلك أى تفرق أو شقاق بينهم من وراء حدود المذاكرة والمناقشة التى لابد منها وظل كل من أبى بكر وعلىّ رضى الله عنهما مظهراً ولساناً ناطقاً بفضل الآخر. ولا ريب أن من تافه القول والعمل أن نعمد بعد مرور أربعة عشر قرناً على ذلك التاريخ فنضيع الوقت ونستثير الشحناء والبغضاء، فى سبيل القول بأن هذا كان أولى بالخلافة أم ذاك، مع أن أصحاب العلاقة أنفسهم لم يقم بينهم أى شقاق من هذا القبيل، وما مضوا الى لقاء ربهم إلا وهم ينبضون بقلب واحد حباً وتضامناً.

رابعاً: النهى عن إتخاذ القبور مساجد :

ولقد رأيت من صيغة الحدديث الدال على ذلك شدة النهى والمبالغة فى التحذير من الإقدام على هذا العمل، قال العلماء : وإنما نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن إتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة فى تعظيمه والإفتتان به، فربما أدى ذلك الى الكفر كما جرى لكثير من الأمم السابقة.
وتتحقق صورة النهى عنه بأن يشاد فوق القبر مسجد فيصبح ما حول القبر مصلى بذلك للناس، أو بأن يصلى عند القبر ويتخذ مسجداً، والعلماء فى حكمهم على الصلاة عند القبور بين محرم ومكره والذين قالوا بالكراهة شددوا بها عندما تكون الصلاة عند القبر أى بأن يكون القبر بين المصلى والقبلة، ولكنها صحيحة على كل، لأن الحرمة تستلزم البطلان فيكون حكمها كخكم الصلاة فى

الأرض المغصوبة قال الإمام النووى : ولما احتاج الصحابة رضوان اله عليهم والتابعون الى الزيادة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كثر المسلمون، وامتدت الزيادة الى أن أدخلت بيوت أمهات المؤمنين فيها، ومنها حجرة عائشة رضى الله عنها مدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد فيصلى إليه العوام ويؤدى الى بالمحذور، ثم بنوا جدارين على ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى إلتقيا، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر.

خامساً :- شعوره صلى الله عليه وسلم وهو يعانى سكرة الموت :

وإنا لنستطيع أن ندرك شعوره صلى الله عليه وسلم وما كان قد إنصرف إليه تفكيره وهمه فى تلك الساعة مما ذكرناه، فقد رأينا أنه بينما كان الناس مصطفين لصلاة فجر يوم الإثنين إذا بالستر المضروب على حجرة عائشة رضى الله عنها قد كشف، وبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه فنظر إليهم وهم فى صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك، حتى نكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وكاد الناس أن يفتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه أشار بيده إليهم أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

لقد كان تفكيره إذا منصرفاً تلك الساعة الى أمته وإلى ما سيكون عليه حالهم من بعده..... وإنك لتشعر من نظرته الباسمة الى أصحابه وهم يقفون خاشعين بين يدى الله تعالى بمعنى الحب العظيم يفيض به فؤاده صلى الله عليه وسلم لهم، بل وإنك لتجد فى إبتسامته مظهراً لما كان يخفق قلبه به من حبهم والدعاء لهم والتوجه إليهم.

لقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم (بأبى هو وأمى) وهو يمر بآخر دقائق عمره أن يتزود من أصحابه رضوان الله عليهم بآخر نظرة، وأن يطمئن الى الحق الذى تركهم عليه والهداية التى أرشدهم إليها... فأراد منهم ما طابت به نفسه وقرت به عينه، حتى غلب ذلك المشهد آلام الموت السارية فى جسده فغلبها، وإذا بالبشر والسرور والرضا يطفح كل ذلك على وجهه، حتى خيل للصحابة أنه صلى الله عليه وسلم قد نشط من أوجاعه وعوفى من آلامه.

ولكنهم ما عرفوا إلا أخيراً أنه ما وقف ينظر إليهم تلك النظرة لينقلب بها الى سكرة الموت، وهى آخر لوحة تسجل فى ذهنه لمشهد أصحابه، بل وأمته كلها، كى تكون هى العهد الباقى بينهم وبين الله عز وجل، ولتكون هى الهمزة الواصلة بين لحظة الوداع لأمته فى الدنيا ولحظة الإستقبال لها فى الآخرة على حوضه الموعود.ولقد شاءت إرادة الله وحكمته أن يكون هذا المشهد هو الصلاة !..... وأن تكون هى العهد الأخيــــر.
فيا أخى المسلم : العهد العهد الذى فارقك عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو راضٍ يتبسم.

خاتمـــــة

فى بعض صفاته صلى الله عليه وسلم وفضل زيارة مسجده وقبره

كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة، ولما أدرج فى أكفانه وضع على سريره على شفير القبر ثم دخل الناس أرسالاً يصلون عليه فوجاً فوجاً لا يؤمهم أحد، فأولهم صلاة عليه العباس ثم بنوا هاشم ثم المهاجرين ثم الأنصار، ثم سائر الناس، ودفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكانه الذى توفى فيه فى حجرة عائشة.

توفى عليه الصلاة والسلام عن تسع نساء هن : سودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر ابن الخطاب، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيى ابن أخطب، وميمونة بنت الحارث، ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بكراً غير عائشة رضى الله عنها.

له صلى الله عليه وسلم ثلاثة بنين : القاسم (وبه كنى) ولد قبل النبوة وتوفى وهو ابن سنتين، وعبد الله وسمى الطيب والطاهر، ولد بعد النبوة، وإبراهيم ولد بالمدينة سنة ثمان وتوفى سنة عشر

وكان له أربع بنات : زينب، وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم، وكان وفاة رقية يوم بدر فى رمضان سنة اثنين للهجرة، وتوفيت أم كلثوم فى شعبان سنة تسع من الهجرة وكلاهما كانا عند عثمان ابن عفان رضى الله عنه.

كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس،وكان أجود ما يكون فى رمضان،وكان أحسنهم خلقاً وخلقاً، وألينهم كفاً وأطيبهم ريحاً، وأحسنهم عشرة، وأشدهم لله خشية، لا يغضب لنفسه ولا ينتقم لها، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله فلا يقوم لغضبه شىء حتى ينتصر للحق، وكان خلقه القرآن، وكان أكثر الناس تواضعاً يقضى حاجة أهله ويخفض جناحه للضعفة، وكان من أشد الناس حياءً، وما عاب طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه، ولا يأكل متكئاً ولا على خوان، وكان يحب الحلواء والعسل ويعجبه الدباء (اليقطين) وكان يأتى الشهر والشهران لا يوقد فى بيت من بيوته ناراً، وكان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وكان يخصف النعل، وير قع الثوب ويعود المريض ويجيب من دعاه من غنى وفقير، كان فراشه من أدم حشوه ليف، وكان متقللاً من أمتعة الدنيا كلها، وقد أعطاه الله تعالى مفاتيح خزائن الأرض كلها فأبى أن يأخذها واختار الآخرة عليها، وكان كثير الذكر دائم الفكر جلّ ضحكه التبسم، وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً، وكان يتألف أصحابه ويكرم كريم كل قوم ويوليه أمرهم.
ثبت فى الصحيح عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحته، ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى قط أف ، ولا قال لشىء فعلته لما فعلته ؟ ولا لشىء لم أفعله ألا فعلت كذا ؟.

واعلم أن زيارة مسجده وقبره صلى الله عليه وسلم من أعظم القربات الى الله تعالى، أجمع على ذلك جماهير المسلمين فى كل عصر الى يومنا هذا، لم يخالف فى ذلك إلا ابن تيمية غفر الله له، فقد ذهب الى أن زيارة قبره صلى الله عليه وسلم غير مشروعة.

ودليل ما أجمع عليه المسلمين من دونه عدة وجوه :

الوجه الأول : مشروعية زيارة القبور عموماً واستحبابها، وقد ذكرنا فيما سبق أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يذهب كل ليلة الى البقيع يسلم على أهله ويدعو لهم ويستغفر لهم، ثبت ذلك فى الصحيح، والأحاديث الثابتة فى تفصيل ذلك كثيرة، ومعلوم أن قبر الرسول صلى الله عليه وسلم داخل فى عموم القبور فيسرى عليه حكمها.

الوجه الثانى :- ما ثبت من إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على زيارة قبره صلى الله عليه وسلم والسلام عليه كلما مروا على الروضة الشريفة، روى ذلك الأئمة الأعلام وجماهير العلماء بما فيهم ابن تيمية رحمه الله.

الوجه الثالث :- ما ثبت من زيارة كثير من الصحابة قبره صلى الله عليه وسلم منهم بلال رضى الله عنه رواه ابن عساكر بإسناد جيد، وابن عمر فيما رواه مالك فى لاموطأ وأبو أيوب فيما رواه أحمد، دون أن يؤثر عنهم أو عن أحد منهم استنكار أو نقد لذلك .

الوجه الرابع : ما رواه أحمد رضى الله عنه بسند صحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج يودع معاذ ابن جبل الى اليمن قال له : يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى، فكلمة لعل تأتى فى أعم الأحوال للرجاء، وإذا دخلت (أن) على خبرها تمخضت للعرض والرجاء، فالجملة تنطوى بصريح البيان على توصية معاذ بأن يعرج عند رجوعه الى المدينة على مسجده صلى الله عليه وسلم وقبره ليسلم عليه .

إذا تبين هذا فاعلم أنه لا وجه لما انفرد به ابن تيمية رحمه الله من دفع هذه الأوجه كلها فى غير ما دافع والقول بأن زيارة قبره صلى الله عليه وسلم عمل غير مشروع .

وجملة ما إعتمده ابن تيمية فى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى، وقوله : لعن الله اليهود والنصارى إتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وقوله : لا تجعلوا قبرى عيداً.

وليس فى هذه الأحاديث الثلاثة ما يصلح أن يكون مستنداً لما إنفرد به.

1- فقوله صلى الله عليه وسلم : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد....... الخ إستثناء مفرغ كما هو معلوم والمستثنى منه محذوف، وإنما يقدر المستثنى من جنس المستثنى منه، وإلا كان إستثناءاً منقطعاً، وهو استثناء مجازى، ولا يجوز إضمار المجاز إلا عند الضرورة التى لا تصلح الحقيقة.

فتقدير الحديث : لا تشد الرحال لإلا الى ثلاثة منها.... الخ فالمستثنى منه هو المساجد، والمعنى أن جميع المساجد فى الفضل سواء، إلا هذه المساجد الثلاثة، فلا وجه لتفضيل بعضها على البعض فى زيارة أو إعتكاف أو نحو ذلك، وعملاً بهذا الحديث قال الفقهاء : إنه لو نذر الإعتكاف وسمى مسجداً معيناً غير هذه المساجد الثلاثة، لم يجب عليه قصد ذلك المسجد بخصوصه ولم يسنّ، بل يغنيه أن يعتكف فى أى مسجد من مساجد الدنيا.

أما حديثنا فهو عن زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ليس داخلاً لا فى المستثنى ولا فى المستثنى منه، فالحديث بمعزل لنتعلم منهم أو الى زيارة الأرحام، لحديث لا تشد عن أى إشارة إليه، وهو كما قلت : لا يجوز أن تشد الرحال الى زيارة العلماء الرحال إلا الى ثلاثة مساجد..... الخ.

ثم إننا نسأل بعد هذا : أفيفهم ابن تيمية من كلمة (تشد الرحال) معناها الحقيقى أم المعنى المجازى الذى هو القصد والعزم على الشىء ؟.

فإن كان يفهم منها المعنى الحقيقى فينبغى ألا تحرم زيارة غير هذه المساجد الثلاثة من المساجد الأخرى إلا إذا شد لذلك رحلاً ثم مضى إليه بواسطة الرحل، قربت المسافة أو بعدت، فإن سعى إليه بوسيلة أخرى غير شد الرحال لم يعد ذلك حراماً، وهل يقول عاقل بذلك ؟

وإن كان يفهم من الكلمة معناها المجازى - وإنما المعنى المجازى لها هو الإتجاه الى الشىء لا يقصد غيره - فإن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعارضه ويرده، فقد كان صلوات الله عليه يزور مسجد قباء فى كل أسبوع، وفى رواية كل يوم سبت، وقد كان مسجد قباء خارج المدينة.

والخلاصة أن المستثنى منه فى الحديث هو المساجد، وزيارة الأرحام والقبور والأشخاص والمعالم غير داخلة فى المستثنى منه، فلا شأن للحديث بها، ومعنى الحديث : إن أولى المساجد بالاهتمام للتوجه إليها من مسافات بعيدة هى هذه المساجد الثلاثة.

2- وقوله صلى الله عليه وسلم : لعن الله اليهود والنصارى إتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. لا شأن له بموضوع الزيارة إطلاقاً، إذ هو نهى عن إتخاذ قبور الأنبياء وما حولها مصلى على نحو ما مر بيانه قريباً، تعلم هذا من قوله (مساجد) إذ المساجد أماكن الصلاة، ولو استقام أن يكون مجرد زيارة القبر اتخاذاً له مسجداً، لكان من مقتضى ذلك أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد جعل من البقيع كله مسجداً له، إذ كان يزوره دائماً.

3- أما قوله صلى الله عليه وسلم: لا تجعلوا قبرى عيداً. فإنما معناه لا تتخذوا لزيارة قبرى وقتاً معيناً لا يزار إلا فيه كما هو شأن العيد، كما فسره بذلك الحافظ المنذرى وغيره من علماء الحديث، ولا مانع من أن يضاف إليه أيضاً النهى عن إظهار الصخب واللهو ومظاهر الزينة عنده على نحو ما يكون فى الأعياد. أما أن تدل الكلمة على النهى عن زيارة قبره فإنها عن ذلك بمعزل وما كان النبى صلى الله عليه وسلم لينهى الناس عن إتخاذ قبره عيداً بهذا المعنى المزعوم ثم يعمد هو فيتخذ البقيع فى كل يوم عيد !....

ثم اعلم أن لزيارة قبره آداباً لا بد من إتباعها، فإذا أكرمك الله تعالى بالتوجه الى زيارته، فاعقد العزم أولا على زيارة مسجده ثم إنوى مع ذلك زيارة قبره الشريف، ثم أغتسل قبل دخولك المدينة، والبس أنظف ثيابك، واستحضر فى قلبك شرف المدينة وأنك فى البقعة التى شرفها الله بخير الخلائق، فإذا دخلت المسجد فاقصد الروضة الشريفة وصل ركعتين تحية المسجد ما بين القبر والمنبر، فإذا دنوت الى القبر الشريف بعد ذلك، فإياك أن تهجم عليه أو أن تلتصق بالشبابيك أو تتمسح بها كما يفعل كثير من الجهال، فتلك بدعة توشك أن تكون محرمة، بل قف بعيداً عن القبر نحو أربعة أذرع ناظراً الى أسفل ما يستقبلك من جدار القبر، وانت غاض الطرف تستشعر الهيبة والإجلال، ثم سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوت خفيض قائلاً : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول اله، أشهد أنك قد بلغت رسالة ربك ونصحت لأمتك ودعوت الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وعبدت الله حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك كثيراً كما يحب ربنا ويرضى.

ثم استقبل القبلة وانحرف الى اليمين قليلاً حتى تكون بين القبر والإسطوانة التى عند أول القبر وارفع كفيك بالدعاء خاشع الى الله جل جلاله، ولا تتوهم أن فى ذلك سوء أدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وأن الدعاء ينبغى أن يكون مع استقبال القبر، فإن الدعاء خطاب الله عز وجل والخطاب لله لا يجوز أن يشرك فيه غيره، وخير إتجاه الى الله عز وجل لدعائه هو إتجاه القبلة، ولا تلتفت الى كثرة من قد تراهم يخالفون هذا من الجهال والمبتدعين وابدأ دعائك قائلا : اللهم إنك قلت وقولك الحق :(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً، وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبى مستشفعا برسولك إليك، فأسألك يا رب أن توجب لى المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه فى حياته، ثم أكثر من الدعاء لما تشاء من أمر دينك ودنياك ولإخوانك وعامة المسلمين.

ولا تنس يا اخى أن تخصنى أنا أيضاً بشىء من دعائك، قل : اللهم إذا جمعت الأولين والآخرين لليوم الذى لا ريب فيه فأسبل جميل سترك على عبدك المذنب محمد سعيد ابن ملا رمضان وأدخله بمحض منك وفضلك فى عبادك المغفورين، وامنحة شربة هنيئة من حوض نبيك محمد صلى الله عليه وسلم يوم يقف عليه مشرق الوجه باسم المحيا يستقبل أصحابه الذين عرفهم وإخوانه الذيم لم يرهم واشتاق إليهم، ولا تجعله من المطرودين أو المحرومين.

عهد يسألك الله عنه يا أخى المسلم أياً كنت، أن تدعو لأخيك عند ختمك لهذا الكتاب فما أحوجنى - لو تعلم - الى دعاء خالص من أخ لأخيه فى ظهر الغيب .

وأحمد الله تعالى وأشكره على توفيقه لتتم هذا الكتاب،وأتضرع إليه سبحانه وتعالى أن يرزقنى حسن التمسك بسنة حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأسأله سبحانه أن يتجاوز بالصفح عما أكون قد تلبست به فى هذا الكتاب من زلات وأخطاء وأن يجعل شفيعى فى ذلك سلامة القصد وبذل الجهد.

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تمت بحمد الله

ادعو لوالديَ ثم لي وللمسلمين

دايم الشوق

جهد شارك به كل اعضاء مستوى ثاني كلية الآدب 1433هـ _ 2012م